أفتح أبواب السماء

الشهيدة فاطمة الحسيني

كمال السيد

كلمات
ميداد للثقافة والإعلام
MIDAD cultural coordination

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: السماء تفتح أبوابها في المساء
رواية تتحدث حول الشهيدة فاطمة الحسيني
تأليف: كمال السيّد
تصحيح وتدقيق: الدكتور الشيخ حسين اليوسف
الطبعة: الأولى، فبراير ٢٠٢٤ - شعبان ١٤٤٥ هـ
إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر - دار مداد للثقافة والإعلام
توزيع: دار المعارف الحكمية
البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com
جميع حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة كلمات
ISBN 978-614-440-340-2
kamal.alsayeed

كلمات

الموقع الرسمي

مداد
للثقافة والإعلام
MIDAD cultural coordination
Bahrain - Jidhafs / AlHashimi Complex
+973 - 32 060 677
midad_bh
midadbh@gmail.com

الفهرس

في البدء	٩
البدايات	١١
محطّات السنين	٢٠
محطّة ٧٠	٢١
محطّة ٧١	٢٣
محطّة ٧٢	٢٤
محطّة ٧٣	٢٤
محطّة ٧٤	٢٥
محطّة ٧٥	٢٨
محطّة ٧٦	٣٢
محطّة ٧٧	٣٣
الحسين يولد من جديد	٤٠
قرابين الكرامة	٥٣
عشر سنوات.. العراق يتقدم!!	٥٥
جيل الملائكة	٥٧
حنانيك يا ربّ!	٦١
الحسين.. نشيد الملايين	٦٧
وارث الحسين	٦٨
خنازير البعث	٧٤
المبرقع	٧٥
البيت الدافئ	٧٦
شرق القناة	٨١
عراق اليوم يبحث عن حسين	٨٢
براكين الغضب	٨٤

ستنطلق الثورة من الثورة	٨٥
صوت العدالة والإنسانية	٨٧
مغول القرن العشرين	٩١
الملحمة الكبرى	٩٢
أيام الحصار	٩٧
السيد قاسم شُبّر	٩٩
المحنة الكبرى	١٠٢
٢٥ رجب ١٣٩٩هـ؛ ٢٠ حزيران ١٩٧٩م	١٠٤
الحُرّ والطاغية	١٠٦
أحزان كانون	١٠٨
العمل المسلّح	١١١
المأساة الكبرى	١١٦
مصرع ثورة	١١٦
الاحتراق	١٢٣
معارك الثأر	١٢٦
الطريق الصعب	١٢٧
على ساحل المحيط	١٣٠
الهجوم على بيت فاطمة	١٣٢
وكان القمر شاحباً	١٣٣
الجولة الأخيرة	١٤٣
التقرير	١٤٧
حقل الأحزان	١٥٠
بانتظار الذي لا يعود	١٥٦
النهايات	١٥٧
مصير الوحش	١٦٩

الإهداء

إلى فاطمة وعلي العراقي..

تقديراً لجهودهما المضنية في توثيق تضحيات شهيدات العراق..

فلولا «مذكّرات سجينة» ما كان لهذه الرواية أن ترى النُّور..

كمال السّيد

شكر وتقدير

يسعدني أن أتقدم بالشَّكر والتقدير إلى أخي العزيز الحاج فلاح العلي، الذي تفضّل مشكوراً بمراجعة الرواية وقام بتصويب العديد من التفاصيل المهمّة..

«وأنا أعلِن لكم يا أبنائي؛ أنّي قد صَمّمت على الشهادة، ولعلّ هذا آخِر ما تسمعونه منّي، وأنّ أبواب الجنّة قد فُتحت لتستقبِل قوافل الشّهداء حتى يكتب الله لكم النصر».

شهيد العصر محمد باقر الصّدر

في البدء

ما يزال شعورٌ بالغربة يلازمني..

ما أزال أشعر أنّني أعيش في زمنٍ غيْر زمني، أشعر بأنّني أنتمي إلى الماضي.. إلى زمنٍ مضى ولن يعود.

لقد أصبحْت جزءاً من التاريخ..

تجتاحني رغبةٌ عارمةٌ في أن أعود إلى زمني.. إلى جيلي..

أستذكِر أولئك الّذين عاشوا ربيع العمر، ثمّ عَصَفَت بهِم رياحُ الزّمهرير، أريد أن أستعيد أيّامهم.. حتّى لو على مسرحِ الذّكرَيات..

أشعر أنّهم ما يزالون حتى هذه اللحظة يحارِبون ويقاوِمون ببسالة.. ويضحّون، إنّني أسمع أصداء صيحاتهم..

ولكن أجْهلُ أين هم؟!

فإذا أردْتَ أيّها القارئ الكريم أنْ تعيش جانباً من حياة أولئك الشبّان البواسل.. والشابّات اللّائي انطفأن على أعواد مشانق حزب البعث المنحطّ، فما عليك إلّا أنْ تتصفّح هذه الرواية، وإذا كنّا لا نمتلك القدرة على تغيير الماضي؛ فلنتذكّره دائماً..

لنَتذكر كلّ الذين صنعوا بدمائهم القانية مُستقبَلَ الأجيال..

كمال السّيد

البدايات

ضبابٌ كثيف يجثُم على بغداد في الأسبوع الثّالث من كانون الثّاني ١٩٧٠م، لمْ تشرق شمسُه إلى المساء.. اختفت ظلال الأشجار والبشر، وقد غطّى الجليدُ بركَ مياه الأمطار، نسمات البرد القارس تلفح الوجوه التي سادها الوجوم.. خفف سائق سيارة ١٨ راكباً السرعةَ، وأخرج (السِّكن) رأسَه من النّافذة.

- ثورة! ثورة!

توقفت السيارة أمام أحد الواقفين في الشارع، كان قد لوّح لها..

كانت السيارةُ قد اجتازت ساحةَ حديقة الأمّة، ثم جسر الأئمّة.. وأصبحَت قريبةً من شارع فلسطين، في داخلها نسوةٌ متلفّعات بالسواد، وأطفال..

- يُمّه نازل

نظرَ السائقُ في المرآة:

- خالة أُمّ جمال تفضلي!

وخاطب السِّكن:

- رجِّع لها الكروَة

- لا يُمّه أنت على باب الله..

ترجّلَت امرأةٌ وقور تبدو أكبرَ من عمرها، ومعها ابنها البالغ من العمر إحدى عشرة سنة، تشعّ من وجهه المستدير هالةٌ مفعمة ببراءة ورجولةٍ مبكرة، ضبابٌ كثيف يجثم على بغداد في ذلك اليوم الشتائيّ من كانون الثاني ١٩٧٠م، لم تشرق شمسُه إلى المساء..

اختفت ظلال الأشجار والبشر، وقد غطّت رقائقُ الجليد بركَ مياه الأمطار..

نسائم البرد القارس تلفح الوجوه التي سادها الوجوم، خفّفت سيارة نقل الركّاب (١٨ راكبا) السرعة، وأخرج السكن رأسَه من النافذة:

- ثورة! ثورة!

كانت السيارة تتجه إلى مدينة (الثورة) شرق العاصمة بغداد..

هذه المدينة الكادحة، التي تتمدد فوق مساحة خمسين كيلومتراً مربعاً، تتألف من ٧٩ قطّاعا، ويشتمل كلّ قطّاع على ألف وحدةٍ سكنيّة، تبلُغ مساحتُها ١٤٤ م٢ (٦×٢٤) م، معظم سكّانها نزحوا من مدينتَيِ العمارة والناصرية جنوب العراق..

وكان الزعيم الوطنيّ عبد الكريم قاسم قد منَح فقراءَ الجنوب قِطعَ الأراضي لبناء مساكنهم في البراري الواقعة شرق بغداد، كان هذا مع بداية ستينيّات القرن العشرين..

أقصى تسلسلٍ لعدد القطاعات هو القطاع رقم ٧٩ المتاخم لمنطقة كسرة وعطش، وشرقاً هناك منطقة الأورفلي القديمة، المجاوِرة لمستشفى (الشمّاعية) للأمراض النفسيّة، وفي منطقة الرشاد يقبَع «سجن الرشاد» الخاصّ بالنساء..

وبرز سوقٌ شعبيٌّ تحت لافتة (سوق الفلاح)، وسُرْعان ما اندثرَت اللّافتة

والاسم، ليظهر اسمٌ جديد يحمل (سوگ العورة)، والكثيرون لا يعرفون سرَّ هذه التّسمية.. الذين يسكنون في قطاع ٧٥ يعرفون الجذور التّاريخية لهذا الإسم..

ثَمّة ثلاثة أشقّاء يسكنون في زقاقٍ واحدٍ في هذا القطاع القديم، يحملون أسماء (باهظ وناهض وحافظ)، وكلّهم كانوا يبيعون السّمك في سوق الفلاح. وذات يوم نشب شِجارٌ حادٌّ بين باهظ وزوجته العوراء التي تشاركه في بيع السّمك، فأطلق صيحاته عالياً:

- السوگ إلچ يا العورة!!

وبقي النّاس يتندّرون بذلك أياماً، وصادف أنّ أحدهم كان يسكن في نهاية الزّقاق الذي يسكن فيه هؤلاء الأشقّاء وقد أقام حفلة زواجٍ لابنه، وفي حدود السّاعة الحادية عشرة أو في منتصف الليل، جاء بعض الأشقياء السُّكارى، وفيهم الشَّقيّ المعروف يومها (رحيم نعيمة) وبدأوا يرقصون ويطلقون أهازيجهم التي اشتملَت على صيحة باهظ:

- السوگ إلچ يا العورة!

وتناهت عربدتهم إلى مسامع الأشقّاء، وما هي إلا دقائق حتى اقتحموا الحفل بـ (التواثي)[1].

وسالت الدماء، وانقلب الحفل إلى مسرحٍ لاشتباكاتٍ عنيفة بين الأشقّاء والأشقياء، وهكذا ترسَّخ الاسم ليحفِر له مكاناً عميقاً في ذاكرة الناس البسطاء، ويستمرّ عشرات السنين..

أمّا (حافظ) فهو والد (أبو درع)[2]، الذي لمع اسمه في الحرب الطائفية (٢٠٠٥

١. جمع توثية، وهي عبارة عن عصا غليظة، عادة ما يستخدمها الرجال في شجارهم إذا حميَ الوطيس.

٢. اسمه إسماعيل

- ٢٠٠٦م)، وبرز فجأةً على مسرح الأحداث ليعيد توازن الرعب ضد الحملة الشعواء التي قادها (عدنان الدليمي) و(طارق الهاشمي) و(حارث الضّاري) وابنه اللعين (مثنى)، تنفيذاً لخطة إبادة الشيعة التي تبنّتها المملكة العبرية لآل سعود. أصبَح أبو درع يومها (البطل القوميّ) للشيعة، وسالت أنهارٌ من دماء الأبرياء سنّة وشيعة..

لكن ما بالي أسترسِل في هذا الموضوع.. وقد اقتربَت السيارة من الشارع القريب من ساحة بيروت! هتفتْ امرأةٌ وقور تبدو أكبر من عمرها:

- يُمّه نازل

نظرَ السائق في المرآة، ويبدو أنه استغرب نزولها في هذا المكان:

- خالة أُمّ جمال تفضّلي!

وخاطب السِّكن:

- رجِّع لها الكروَة

قالت أُمّ جمال:

- لا يُمّه أنت على باب الله

ترجّلَت وخلْفها ابنها جمال ذو الأحد عشر عاماً، الذي أدرَك أنّ والدته تريد زيارة أختها التي تسكن في شارع فلسطين المجاور لقناة الجيش، بينما تسكن أُمّ جمال في (حيّ الأكراد)، وبينهما قناة الجيش التي تفصل بين عالمين..

حيّ الأكراد الذي يقع بعْد ساحة (٥٥).. لا يبعد كثيراً عن شارع فلسطين، لكن ما إن يعبُر المرء قناة الجيش حتى يدخل بدايات (مدينة الثورة)، التي تُعَدّ في ثقافتها وتقاليدها امتداداً لمدن الجنوب، بالرغم من التغير البطيء الذي بدأ ينفُذ في العمق الاجتماعي، بسبب ظهور جيلٍ جديد من الشباب المتعلِّم

والمثقَّف منذ منتصف الستينيّات، ليبلُغ الذروة في عقْد السبعينيّات..

شارع الثورة، الذي يعبُر (قناة الجيش)، يؤدي إلى (حيّ الأكراد)، ويمرّ بالقرب من حيّ (جميلة)، الذي سُمّي بذلك تخليداً لـ (جميلة بوحيرد) الثائرة الجزائرية التي واجهَت الاستعمار الفرنسيّ، وصمدَت تحت التعذيب الوحشي..

حيّ الأكراد هو جزء من مدينة الثورة، ويقع في شارع (ستين) بالقرب من سوق (مريدي)، الذي اشتهَر ببيع السلاح وتزوير الوثائق الرسمية بما في ذلك جوازات السفر. وسوق مريدي هذا هو الآخر سُمّي باسم «مريدي شحيّت الفرطوسي» من مواليد ١٨٩٠م في المجر الكبير (مدينة العمارة)، نزَح إلى مدينة بغداد في الثلاثينيات وسكن في «المعامل» بعد تطوعه في الجيش حتى سنة ١٩٤٨، وبعد فيضان «دجلة» في ١٩٥٤م، نزحَت الأسرة إلى «منطقة الشاكرية»، وافتتح دكاناً بسيطاً.. وفي عام ١٩٦٣م انتقل إلى مدينة الثورة التي تأسسَت حديثاً، وكان له دكان في الشارع المجاور لـ (قطاع ٣٤)، كان محل «مريدي» يبيع براميل الماء، ثم تطوَّر إلى بيع المواد الغذائية.. وأصبَح المكان مكاناً لوقوف سيارات الباص الخشبية وسيارات (دگ النجف).. وأصبَح «مريدي» نقطةً دالّة ومحطّة رئيسية وملتقى للشباب وحتى وجهاء العشائر.

كانت أُمّ جمال قد صحِبت ابنها لزيارة الإمامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد عليهما السلام في الكاظمية شمال بغداد، وكانت هذه المنطقة تُعرف في زمن تأسيس بغداد بـ (مقابر قريش)، وفي هذه المدينة التي تقع على نهر دجلة، وُلِد السيد محمد باقر الصدر، وأمضى فيها طفولته يتيماً مع شقيقته آمنة..

كان البرد قارسا والضباب ما يزال جاثماً في منتصف ذلك النهار الشتائيّ؛ نسائم كانون تلفح وجه (جمال) المستدير المفعَم بهالة من البراءة والرجولة..

السّماء تفتح أبوابها في المساء

توقفا أمام بيتٍ كبير تناهز مساحته خمسة أضعاف بيوت مدينة الثورة.. تسكنه أسرةٌ ثريّة..

كانت أُمّ جمال تتصوّر أنها ستجد أختها مع ابنتها فاطمة وابنها طالب..

شعرَت أُمّ جمال بالبرد حتى داخل غرفة الضيوف..

فوجئَت بوجود أبي طالب زوج أختها وقد أرهف أذنَه إلى المذياع، وكان يبثّ موسيقى عسكرية. تبادلَت الأختان عبارات ودّية مقتضبة..

فاطمة التي تناهز السابعة من العمر بوجهها الحنطيّ وابتسامتها، كانت تقرأ في كتابها المدرسيّ المعروف بـ (القراءة الخلدونية)..

أخذ جمال مكاناً بالقرب من زوج خالته الذي بدا شارد الذهن قليلاً وهو يتابع صوت المذياع، وكان ينتظر بياناً جديداً.. صوت فاطمة الرقيق يتخلّل الموسيقى العسكرية:

- إلى متى يبقى البعير على التلّ؟
- إلى المساء.. من طوى ردائي؟
- سلمى طوت ردائي؟
- إلى متى يبقى البعير على التلّ؟
- إلى..

التفت أبو طالب إلى جمال وقال:

- عمّو جمال إلى متى يبقى البعير على التلّ؟!

فوجئ جمال بالسؤال لكنه قال:

- إلى المساء

ابتسم زوج خالته وقال بمرارة:

- نعم إلى المساء..

شكت أُمّ طالب إلى أختها..

- مِن الصبح لحدّ الآن وأبو طالب (مگابل) الراديو
- خير إن شاء الله؟!
- يگولون أكو مؤامرة جديدة

نظرَت أُمّ جمال إلى الجدار؛ حيث الصورة المعلّقة لـ (عبد الكريم قاسم) وهو يبتسم..

أرادت أُمّ طالب إبعاد جمال عن هذه الأجواء، فطلبَت منه بلهجةٍ ودّيّة أن يعلِّم فاطمة الحساب؛ لأنها كانت ضعيفة في هذا الدرس..

نهض جمال ليجلس بالقرب من فاطمة التي بدت متحمّسةً للموضوع..

خفّ صوت الموسيقى، وأرهف أبو طالب سمْعه إلى صوت المذيع، الذي لم يكن كسائر المذيعين.. إنّ من يذيع البيانات على الهواء، ويفتتِح الأخبار منذ الصباح هو محمد سعيد الصحّاف المدير العام للإذاعة والتلفزيون الذي أخذ يصرخ:

- أيها المواطنون!.. إنّ مؤامرةً خسيسة قد دبّرتْها الإمبريالية الأمريكية والرجعية الإيرانية مع الرجعية المحلية للإطاحة بالثورة ومكتسباتها.. ولكن الثورة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي كانت للمؤامرة الدنيئة بالمرصاد، وإنّ الرؤوس المدبِّرة الخائنة ستنال جزاءها الصارم..

وتلا ذلك انطلاقُ موسيقى عسكرية، ما يعني أنّ الأنباء المثيرة متواصلة..

وجاء صوت الصحاف[1] من جديد.. يعلِن عن تشكيل المحكمة الثورية الخاصة برئاسة طه الجزراوي، وعضوية كلٍّ مِن ناظم گزار، وعلي رضا[2]..

ومن صلاحيات هذه المحكمة إصدار الأحكام وتنفيذها فوراً من دون الحصول على توقيع رئيس الجمهورية..

استأذنَت أُمّ جمال أختَها بعْد أن رأت الجوّ ثقيلاً جداً، فما يزال أبو طالب مشدوداً للمذياع وهو يبثّ الموسيقى العسكرية. كانت الوجوه ما تزال يسودها الوجوم، باستثناء الصورة المعلقة للزعيم عبد الكريم قاسم التي بدا فيها مبتسماً..

وفي الشارع كانت سيارة ١٨ راكباً في طريقها إلى مدينة الثورة، ولمحَت (السكن) يخرِج رأسَه:

- ثورة! ثورة..

وعندما صعدَت رحّب بها السائق.. وأشار إلى (السِّكن) بعدم أخذ (الكروَة).. عبرَت السيارة جسر القناة متجهةً نحو ساحة (٥٥)، في طريقها إلى (حيّ الأكراد)..

كان البرد ما يزال قارسا، وتكاثفَت الغيوم في سماء مدلهمّة حجبَت قرص الشمس تماماً.. وتناهى إلى الأسماع أصداء رعود بعيدة..

استقبل أبو جمال زوجته..

- الزيارة مقبولة:

---

١. محمد سعيد الصحاف مدير الإذاعة والتلفزيون، أصبح وزيراً للإعلام لحكومة صدام حتى سقوط الصنم؛ حيث اختار الإمارات العربية، وكان العراقيون يتندرون بأكاذيبه.

٢. طه الجزراوي؛ أصبح وزيراً للصناعة، ثم نائباً لرئيس الجمهورية صدام، وناظم گزار.. منح رتبة لواء وأصبح مديراً للأمن العام، تم القبض عليه سنة ١٩٧٣م وهو في طريقه للفرار إلى إيران، ووجهت له تهمة التخطيط والتآمر لإسقاط نظام الحكم.. قام بتعذيب الشهيد عبد الصاحب دخيل وإلقائه في حوض التيزاب، أما علي رضا فهو أحد الشخصيات البارزة في حزب البعث.

ألقَت أُمّ جمال عباءتها، وكان صوت المذياع عالياً وهو يبثّ الموسيقى العسكرية.. قالت بلهجةٍ فيها انزعاج:

- مخلّي الراديون على المؤامرة الجديدة؟!
- وشدرّاچ؟!
- مرّيت على أختي أُمّ طالب
- شلون أحوالهم
- شلونهم چنهم گاعدين بفاتحة
- حقهم! يومية مؤامرة.. هذا البلد بعد ما يستقرّ.. ماكو أمان.. البارحة قصدي العام عدموا التاجر عبد الحسين جيتا.. وهو من وجهاء البصرة بنى ثمانين مسجداً!!

وراها اتهموا سيد مهدي بن سيد محسن الحكيم بأنه جاسوس!!

قصدهم واضح إهانة المرجعية

ودوّى صوت الرعد ليمزّق أوصال الأرض..

وجاء صوت (الصحاف) يعلِن عن تنفيذ حكْم الإعدام بوجبةٍ جديدة، وكان مِن ضمْن الأسماء الضابط القوميّ المعروف جابر حسن حداد[1]!

ضرَب أبو جمال بكفّه على فخذه:

- مع الأسف.. الله ينتقم منكم يا أنذال.. يريدون يعيدون مخازي الحرس القوميّ.

لمعت البروق ودوّت الرعود وانهمر المطر غزيراً.

---

١. ضابط قومي كان محافظ كربلاء، وفي انقلاب تموز ١٩٦٨م استقال من منصبه.

وساد الوجوم وجوه الأطفال؛ نبيل وهاشم وجلال وهم يجلسون قرب جمال..

ظلّت السماء مسرحاً للبروق والرعود، واستمرّ المطر ينهمر بغزارة.

نهض أبو جمال للصلاة في المسجد القريب، كان صوت تلاوة ما قبل أذان المغرب يخترق خيوط المطر:

- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[1].

محطّات السنين

مرّت ثمانية أعوام.. مرّ بها جمال كمحطات في رحلة الحياة، سنواتٌ حافلة بالحوادث، عاشها ضميره ووجدانه وعقلُه، فتبلورَت شخصيته شاباً وقوراً يبدو أكبر مِن عمره.. هالةٌ مِن نور جدّه النبي ترتسِم فوق محيّاه فتزيده جمالاً..

منذ طفولته هفا قلبُه إلى المسجد يؤدي الصلاة..

كان يعي ما يجري من حوادث في عراق البعث، وكان يَنظر إلى حزب العفالقة كجسمٍ غريب مرفوض أخلاقياً. صهرتْه الأيام، وتركَت الحوادث المريرة آثارها في نفْسه وزادته وعياً..

كان في السابعة عشرة من ربيع العمر، عندما انتمى إلى حزبٍ سرّي مناهض لنظام البعث؛ هو حزب الدعوة. في أعماقه يضطرم شوقٌ لتحصيل المعرفة، فقرأ مؤلّفات السيد محمد باقر الصدر، وفي طليعتها (فلسفتنا) و(اقتصادنا)، رغم أنه لمْ يكن يدرِك الكثير مما تشتمل عليها، لكنه كان يعتز باسم المؤلِّف. وكان

١. القمر: ٩-١٢

يعتبر كتابَ السيد فضل الله (خطوات على طريق الإسلام) منهاج عملٍ تنظيميٍّ كامل، إنّ من يريد أن يتعرّف على (جمال) وجيل جمال عليه أن يسافر ويواكب رحلته، ويمرّ بتلك المحطات الثمان التي مرّ بها ذلك الجيل الفريد من شباب الوطن المقهور.. جيل الملائكة.. (ملائكة الثورة).

محطّة ٧٠

في الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم الثلاثاء السادس من حزيران ١٩٧٠م توفّي المرجع الكبير السيد محسن الحكيم في مدينة بغداد، وبعْد نصف ساعة علَت مكبّرات الصوت في عموم المساجد والحسينيات، وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً أُذيع الخبرُ من إذاعة بغداد.. وكانت ليلةً مشهودةً في مدينة الثورة.

وفي اليوم التالي حُمِل النعش الطاهر إلى مرقد الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وتم حمْله على الأيدي في موكب طويل امتدَّ مسافة خمسة كيلو مترات عبْر الأعظمية، ثم باب المعظم ثم شارع الرشيد وإلى جسر الأحرار، وقد بلغ عدد المشاركين زُهاء نصف مليون شخص، ليكون التشييع الأكبر في تاريخ العراق، وقد شاركَت فيه النسوة لأول مرّة، وكانت الجماهير تهتف:

يـا لرزءٍ هَـدّ أركان الـهـدى ومُـصـابٍ جلَلٍ أدمى الفؤادْ
فالمُعزّى صاحبُ العصر ومَن حمَلَ الإسلام كي يهدي العباد
يـا فـقـيـداً رزؤه عـمَّ الـبلاد وحكيماً صمتُه أدمى الفؤاد

وعندما وصلَت طلائع المسيرة إلى منتصف جسر الأحرار بالقرب من دار الإذاعة، شوهدَت سيارة الرئيس البكر تنتظِر.. كانت الجماهير تحمِل لافتةً كبيرة خُطّ فوقها: عِشت رائداً وزعيماً خالداً.

وما إن شاهدت الجماهير أحمد حسن البكر حتى انطلق هتاف التحدّي:

- سيد مهدي مو جاسوس اسمع يالريِّس!

فسجّلَت احتجاجها ضدّ ما قام به النظام قبْل أشهر، عندما أعلَن رسمياً بأنّ نجْل السيد الحكيم (السيد مهدي) جاسوس وعميل للأجانب!!!

وأمام مشهد الغضب الجماهيري، اضطُرّ موكب البكر إلى الانسحاب! نصف مليون إنسان في بلد يتألف من ثمانية ملايين نسمة يشاركون في التشييع، له دلالات واضحة جداً.. خاصة عندما انطلق الهتاف الجماهيري:

- سيد يوسف بايعناك.. سيد يوسف بايعناك!

واستمرّت المسيرة الحاشدة إلى معرض بغداد الدولي، وكان النعش الطاهر لذلك السيد الوقور، عندما يصِل إلى المدن الصغيرة في الطريق إلى كربلاء، يشيَّع فوق الأيدي من أجْل أداء مراسم التوديع..

وصل الجثمان إلى قصْر الرحاب الذي عُرِف بـ(قصر النهاية)؛ أي نهاية العهد الملكي، أمّا في مخيَّلة الشعب، فقدْ كانت النهاية تعني نهاية عمْر الإنسان الذي يودَع في معتَقل هذا القصر المخيف. قبْل مئة يوم شهد هذا القصر الرهيب إعدام عشرات الأبرياء من الشخصيات العسكرية والحقوقية على يد سفّاحي البعث.. مِن أجل التخلّص من الذين يعرفون سوءات الحزب العفلقيّ المقيت. وُضِع النعش في سيارة لنقله إلى مدينة كربلاء؛ حيث تبِعها موكبٌ كبير من السيارات..

وعندما وصلَت إلى مدينة كربلاء، كان الازدحام قد بلغ ذروته، وبدأ موكب التشييع من كربلاء إلى النجف سيراً على الأقدام، وقد أخذ العطش مأخذه من المشيّعين، فبادر السيد هادي الحكيم إلى إحضار سيارة صهريجٍ محمّل بالماء العذب لسقي المشيّعين، فيما ناشد السيد محمد باقر الحكيم الجماهير المحتشدة أن يركبوا السيارات بدل المشي، فركب البعض واستمرّ الآلاف في

السير، ومن بينهم السيد محمد باقر الصدر الذي واصل السير إلى أن شعر بالإجهاد.

وصل الموكب المهيب إلى خان النخيلة فاستقبلتْه عشائر الهندية؛ حيث تَقرّر استئناف المسيرة عصراً.

وعندما وصل الجثمان إلى الصحن الحيدريّ، ألقى السيد محمد باقر الحكيم كلمة العزاء، فيما قام السيد يوسف بالصلاة عليه ليوارى الثرى في مقبرةٍ خاصة إلى جوار مكتبته العامة الملاصقة لمسجد الهندي، وممّا قيل في تأبين الراحل العظيم:

سيف المنايا مرهف الحدِّ ... يُردي ولا نقوى على الردِّ
بعث الأسى فينا وسعّرها ... ناراً تضجّ بلاهب الوجدِ
بوركت في الوادي المقدس بضعة ... ما كان لولا من تضمّن أيمنا
والدين آذن بالرحيل مقوّضاً ... ليرى له في أرض لحْدك موطنا
بثراك بات موسّداً أمل الورى ... يا جنة المأوى ومقبرة المنى

محطّة ٧١

بعْد شهور من رحيل السيد الحكيم، بدأت أولى موجات التهجير القسريّ إلى إيران، وكانت مَشاهد العوائل التي عاشت عشرات السنين في بغداد والنجف وكربلاء وهي تذرف الدموع، مؤثّرةً في الوجدان الشعبيّ؛ فهذا شابٌّ يلعب في أحد الأندية الرياضية يودّع رفاقه وأصدقاء طفولته وهو يبكي، وتلك الفتاة تودّع أهلها لأنها اختارت مرافقةَ زوجها في هجْرته أو ترحيله، وبدا الأطفال وكأنّهم لا يفهمون ما يجري وهُم يرون دموع الأمهات والآباء.. طفلةٌ صغيرة تتشبّث بصديقتها تريد مرافقتها في رحلة التهجير.. رحلةٌ مجهولة المصير.. البعثيون يهدّدون أهلَها سوف يُلحِقونها بصديقتها إذا بقيَت تتمسك بها!! اللعنة على هؤلاء البعثيين الأوغاد..

محطّة ٧٢

سمع جمال مِن والده أنّ (الحكومة) شنّت حملة اعتقالات طالت طلبة الحوزة العلمية وعلماء الدين، وأنّ السيد محمد باقر الصدر معتقَلٌ في مستشفى النجف بعد تدهوُر حالته الصحية!

وقد وُضع في غرفةٍ خربة جداً، وقُيّد إلى سريرٍ متهالك، والمستشفى مطوَّق من قِبَل عناصر الأمن..

وأنّ السيد محمد باقر الحكيم قد اعتُقل ونُقل إلى بغداد، وتعرّضَ للتعذيب على يد مدير الأمن العام الوحش (ناظم گزار).

ذات يومٍ شتائيّ كان جمال قد ذهب بمعيّة والده لزيارة أضرحة السفراء الأربعة، وفوجئ بضريح السفير الرابع (محمد بن علي السمريّ) وقد تحوّل إلى دكاكين ومحلات، حتى أنّ منارة مسجده أصبحَت في أحد الدكاكين!!

وقد سُمِع من وكيل السيد الصدر أنّ البعثيين يريدون طمس هذه المشاهد المقدّسة؛ لأنّ هذه القبور تُثبت الحقيقة التاريخية حوْل وجود الإمام المهديّ، ولأنها شاهدُ إثباتٍ على هذه الحقيقة الكبرى.

محطّة ٧٣

لأول مرة سمِع جمال باسم (ملّا مصطفى البرزاني) وقيادته وحركة الأكراد، وفي تلك الفترة سمِع بأنّ الحكومة أرسلَت إليه وفداً من علماء الدين ومعهم حقائبُ ملغمة لاغتيال (الملّا) أثناء استقبال الوفد، وقد لقي هؤلاء المساكين حتفَهم في الانفجار، ونجا الملّا.

محطّة ٧٤

كان جمال قد تعرّف في المسجد القريب من بيتهم على طالبٍ جامعيّ (صادق)، يدرس في كليّة أصول الدين في منطقة الكرادة، وكان يتحدث له عن مناهجها الدراسية وبعض أساتذتها وشروط القبول فيها.. وكان يذكر باحترام عدداً من الشخصيات وفي طليعتهم الشيخ عارف البصريّ، والدكتور داود العطار..

كان أهمّ شرط في قبول الطلاب التزكية الأخلاقية، وقد أُلغِي بعد أن فرضَت الحكومة عميداً عميلاً بالقوّة، وأصبحَت أبواب الكليّة مفتوحة لمن هبّ ودبّ..

وفي غروب يومٍ حزين، رآه في المسجد مهموماً، فسأَله عما يكربه، فطفرَت من عينيه الدموع.. وقال بمرارة: اعتقلوا الشيخ عارف البصريّ ومعه العشرات، وفي طليعة المعتقَلين معه السيد عماد الدين الطباطبائيّ والسيد عزّ الدين القبّانچيّ، والسيد نوري طعمة مؤلف كتاب (مواكب الجامعة)[1]، وحسين جلوخان.. وبعْد شهرين من الاعتقال تسرّبَت أخبار مِن داخل المعتقَل تحكي عن صمودهم في جولات التعذيب الهمجيّ، وقد تمّت محاكمتهم في خريف ١٩٧٤م وصدرَت أحكام الإعدام في محكمة الثورة برئاسة جار الله العلّاف، الذي وجّه إليهم الاتهام التالي:

- أنتم متهمون بالانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية، ونشْر أفكار هدّامة ضد الثورة، والمساهَمة في الإخلال بالأمن!

فردّ عليه الشيخ عارف بشجاعة وبلسان عربيّ مبين:

- أنفي أن أكون وإخوتي مخلّين بالأمن أو نشر أفكار هدّامة، وأؤكد أننا مسلمون ودعاة للإسلام الذي هو رسالة ربّ العالمين لكل

١. حسين طعمة أحد المعتقلين وهو مؤلف كتاب «مواكب الجامعة» وكتاب «المشكلة الاجتماعية المعاصرة» وهذا جزء مهم من تاريخ الحركة الإسلامية

جيـل، والطريـق الـذي اختـاره الله لإسـعاد الأمـة، وأتحـدّى أن تكـون محاكمتنـا علنيـةً؛ لكـي يطّلـع الشـعب علـى الحقيقـة كـما هـي.

وعندما سأله الحاكم عن رأيه في حزب البعث العربي الاشتراكي! أجاب ببسالة:

- لو كان إصبعي هذا بعثياً لقطعتُه.

وهذا ما كرّره السيد عماد أيضاً.

وعندما تُليَت أحكام الإعدام، قال السيد القبانچي: سيكون خصمُك جدّنا رسول الله يوم القيامة.

أما رد الشيخ عارف البصري، فكان تلاوته الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1].

وكشف عن الحقيقة.. حقيقة الحياة قائلاً:

- كلنا محكومون بالإعدام مع إيقاف التنفيذ، إلا أنها آجال،

ثم وجّه خطابه إلى رئيس المحكمة الظالمة قائلاً:

- أبالمـوت تهدّدوننـا؟! إن الطغـاة سـيموتون! وسـيجمع الله بيننـا وبينكـم..

وكانت المنظمات الحزبية تحاول تشويه سمعة الشيخ، فأشاعت أنه قُبض عليه وهو على المنبر ومعه جهاز اتصال لاسلكي!! هذه هي ذهنية البعثيين وضحالتهم، وهذا هو مستواهم التافه المنحطّ. وقيل إن صدام هو مَن صادق

---

١. آل عمران: ١٧٣

على أحكام الإعدام بعد أن تمارض أحمد حسن البكر..

التفت الشيخ عارف إلى أحد المعتقَلين وقد حُكِم ببراءته، وكان يبكي مِن أجْل الشيخ عارف، قال له:

- لماذا تبكي وقد سألتُ الله بين الركن والمقام أن يرزقني الشهادة في سبيله؟!

سمحَت السلطات بزيارة المعتقَلين، لمعرفة المزيد من علاقاتهم بهدف اعتقالهم فيما بعد..

وتسرّبَت قصصٌ عديدة عن سلوك ومواقف الشيخ عارف البصريّ، وحواره مع معتقَلين من الحزب الشيوعي وتأثّرهم بفكره وشخصيته، حتى أنّهم تعلّموا الصلاة، وأخذوا يصلّون خلفه بعد أن نفضوا أيديهم من معتقداتهم الماركسية!!

في ٦ كانون الأول ١٩٧٤م، وقبْل تنفيذ أحكام الإعدام بساعة، حضر مبعوث من القصر الجمهوريّ، وأجرى مقابلةً مع الشيخ عارف البصري، وأبلغه رغبةَ مجلس قيادة الثورة بالعفو عنه وعن رفاقه شرط تعاونهم مع السلطات، فردّ الشيخ قائلاً:

- إن حكمتم عليّ بالإعدام لأنني أدعو إلى الإسلام، فهو شرف من الله، وأزيدك وضوحاً: إنّ الله وفقني لحجّ بيته الحرام عام ١٩٧١م، فدعَوْته وأنا متعلّق بأستار الكعبة أن يرزقني الشهادة؛ وها أنا أحصل على هذا الشرف وعلى يد أرذَل خلق الله؛ إنّني أرفض أن أبيع ديني لكم.

وفي ٢٦ كانون الأول، تم تنفيذ أحكام الإعدام، وفي اليوم التالي اجتمع مئات الطلبة والأساتذة الجامعيين من جامعة بغداد أمام بناية الطبّ العدليّ، وكانت السلطات قد أقدمَت على إلغاء كليّة أصول الدين، وتنسيب جميع طلبتها إلى كلية الآداب جامعة بغداد تحت عنوان دورة خاصة..

وتطوَّر التجمّع إلى تظاهرة احتجاجٍ شارك فيها أكثرُ مِن ثمانمائة طالب وأستاذ، وحدث تصادمٌ مع عناصر أمْن النظام وإطلاق الرصاص واعتقال، وأُرجئ تسليم جثامين الشهداء الذين عُرفوا فيما بعد بـ(قبضة الهدى) إلى ما بعد منتصف الليل، وقد منعَت السلطات إقامة مجالس العزاء ومظاهر البكاء على الشهداء..

افتقد جمال في تلك الأيام صديقه الطالب الجامعيّ؛ وعرف فيما بعد أنّه تعرّض للاعتقال في تظاهرة الاحتجاج أمام مبنى الطبّ العدليّ، وبعد حوالي أسبوعين التقاه مرةً أخرى في المسجد، كان يحمل كراسةً صغيرة تحت عنوان (الفكر العميق والأزمة الحضارية)، وفيه يشير الكاتب غالب حسن إلى أنّ سقوط بعض العيّنات المعتبرة لن يؤثر على حركة الفكر العميق.. كانت الإشارات واضحة إلى ما يجري مِن محن.. لمْ يرَ جمال صديقه وأستاذه ذلك الطالب الجامعيّ ضاحكاً أبداً.. كان يكابد همّاً دفيناً في أعماقه إلى جانب تزايدٍ في اهتمامه واللقاء به أسبوعياً.. لا يعرف أين يقع بيته.. كان يقول له إنّه في أحد القطاعات قرْب السدّة، ومن يومها اختفى صادق ولا يُعلَم له خبرٌ، سمع أنه تعرضَ إلى حادث سير على يد سائقٍ أهوج، إلا أنه لم يكن متأكدا.

محطّة ٧٥

في آذار، وما تزال مظاهر الحُزن قائمةً بمناسبة أربعينيّة الإمام الحسين عليه السلام، كانت الإذاعة والتلفزيون تطبّل وتزمّر لمناسبة توقيع اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران؛ حيث التقى (السيد النائب صدام حسين) شاه إيران في الجزائر، وعقدا معاهدةً تم بموجبها إنهاء مشكلة الحدود بين الجارين، وبعد أيامٍ وفي يوم ١٧ آذار رفعَت إيران دعمها عن الأكراد (العصاة)[1]، وقام الجيش العراقي باحتلال (گلالة) معقل عاصمة الحركة الكردية بقيادة البرزاني ليموت كمداً فيما بعد.

١. أطلق البعثيون تلك التسمية على الحركة الكردية في ذلك الوقت لمعارضتها لنظامهم القمعي.

السّماء تفتح أبوابها في المساء

كان الجنود القادمون مِن حرب (الشمال) يروون عشرات بل مئات الحكايات عن هول المعارك وقسوة الظروف في حرب غير مقدسة، خاصة بعد انتشار فتاوى تحرّم توجيه البنادق نحو إخوة الدين وشركاء الوطن. وقد أكد الكثيرون ظاهرة انتحار البغال في الممرات الجبلية، وكان الجيش العراقي يستخدم هذا الحيوان المسكين في حمل ونقْل العتاد والأرزاق في ظروفٍ قاسية جداً حتى عُرِف بـ (أبو صابر)، ولكن قد يحدث أن يرمي البغل بنفسه في عمق الوادي السحيق ليضع حداً لمعاناته. وللبغل في سجلّات الجيش رقمٌ خاص، وهو يعادل في قيمته العسكرية عشرة جنود؛ ولذلك كان الجندي يخضع للمحاكمة الصارمة إذا فرّط في رعاية البغل، أو تسبّب في هلاكه أو ضياعه، وقد تصِل العقوبة إلى السجن أكثر من عام.

وانتشرَت في تلك الفترة الأشعار التي تعزف على الوتر القومي كردِّ فعلٍ شديد إزاء سياسات حزب البعث الشوفينية. ولعلّ المقطع الشعري الآتي للشاعر (هزار) هو الأكثر تأثيراً، حيث يصوّر مشهد الأُمّ الكردية وهي تلفُّ قطعة القماط حوْل طفلها الرضيع فتقول:

- اصفح عنّي يا صغيري!
لقد أحكمْتُ وثاقك

لأنك طفلٌ كرديّ

يوماً ما..

سيثب عليك أعداؤك

مِن الترك والعرب والفرس

ويوثقونك..

عليك أن تتعلّم تحمّل الأذى..

وكانت الأمهات في مدينة الثورة يودّعن أبناءهنّ وهم يتوجّهون إلى جبهات الحرب في الشمال بالبكاء والنحيب؛ والدموع الغزار، فاحتمالات العودة كانت ضئيلة..

وأُشيع وقتها أنّ بعضهم لامَ أحمد حسن على هذه الحرب الظالمة، وأنها كانت تحصد أرواح مئات الجنود من وسط وجنوب العراق، فأجاب أنه لا يكترث لذلك؛ لأنّ ضحايا الحرب همْ محمد رضا وكاكا حمه وعبد الزهرة، في إشارة إلى الشباب الإيرانيين؛ حيث تقيم عوائلهم في العراق منذ عشرات السنين، أمّا كاكا حمه فهو يرمز إلى الضحايا الأكراد، وعبد الزهرة إلى ضحايا الجنود الشيعة. هكذا كان الرئيس العراقي العجوز ينظر إلى حرب الشمال!

وفي نيسان نشبَت أزمة مياه الفرات بين سوريا والعراق، وكانت سوريا قد أقامَت سدّاً على نهر الفرات لتروي جانباً من سهولها.. ما أدى إلى انقطاع مياه نهر الفرات. وشهدَت مدينة الثورة نزوح مئات العوائل التي تعيش على ضفاف النهر وتعمل في زراعة الأرُز وتربية المواشي. وقد شنّ حزب البعث في العراق حملةً إعلامية شديدة ضد حزب البعث في سوريا، وشبّهه بمعاوية، وابنه يزيد الذي منع أهل البيت من شرب الماء.. كما افتعل النظام بعض التفجيرات متّهماً النظام السوري وحافظ الأسد شخصياً!!

وفي حزيران شنّت سلطات البعث حمْلة اعتقالات شملَت عشرات الطلبة والأساتذة في الحوزة، وأصدرَت قراراً بترحيلهم، وبعد ثلاثة أشهر قامت سلطات البعث باعتقال المئات من الطلبة في النجف والكاظمية وكربلاء وسامراء، وترحيل بعضهم إلى باكستان وإيران وأفغانستان ولبنان والهند والسعودية والبحرين، وطالت الحملة عشراتٍ من الطلبة العراقيين أيضاً.

وذات يوم جاء صادق إلى المسجد ومعه صحيفة السفير اللبنانية، وفيها تقريرٌ يتحدّث عن الإمام موسى الصدر وتأسيسه حركة المحرومين، ثم ها هو الآن يقوم بتأسيس حركة مسلَّحة لمقاومة العدوان الإسرائيلي تحمِل اسم (أمل) التي ترمز إلى (أفواج المقاومة اللبنانية).

وشهدَت مساجد العراق انتشاراً لظاهرة تأسيس المكتبات، وكانت مرجعية السيد محسن الحكيم تدعم المشروع بقوة، وظلَّت جهود تأسيس المكتبات العامة مستمرة حتى بعْد وفاته، وكان الدعاة الأوائل يقفون وراء هذه الجهود الثقافية الواعدة، وتعرّفَ جمال على بعض الأسماء وفي طليعتها: السيد محمد حسين فضل الله. وكان يقرأ بشغفٍ قصص بنت الهدى، وأعجبتْه قصة (الفضيلة تنتصر)، حتى أنه فكّر أن يوصل هذه القصة إلى ابنة خالته (فاطمة)..

وكان صادق هو مَن عرّفه على مؤلفات بنت الهدى، وأخبَره أنه سمّى ابنته (نقاء) تيمّناً باسم بطلة القصة.

كان حزب البعث يدرك جيداً أنه جسمٌ غريب في المجتمع العراقي، لذلك بدأ بتنفيذ مخططاته وبرامجه في تحطيم المناعة الأخلاقية، ومسْخ المجتمع وسلْخه عن هويته وهدْم القيم الأخلاقية، وبدأ بمشاريعه تحت لافتاتٍ براقة من قبيل (الطلائع) لتلاميذ الابتدائية والمتوسطة، و(الفتوّة) لطلبة الثانوية، ومن خلال تنظيم السفرات المختلطة وإقامة المخيمات، وما كان يجري تحت جنح الظلام من علاقاتٍ عاطفية بين المراهقين والمراهقات. وكان التلفزيون يعرض أفلاماً تخدش الذوق الأخلاقيّ.. حتى برنامج مكافحة الأمية (محو الأمية) أسيء استغلاله في توجيه حركة المرأة نحو (التحرُّر) من (القيم الأخلاقية)..

ومع كلّ ذلك، أخذ يظهَر جيلٌ من الفتيات المحجبات في عمر الزهور، وبدأ مجتمع المرأة الملتزمة ينمو شيئاً فشيئاً كما تنمو الرياحين، وظهر زيٌّ للفتاة العراقية الملتزمة يجمع بين الأناقة والجمال والحشمة والوقار..

وهذا لمْ يحصل عفوياً.. إنما تقف وراءه سيدةٌ وقور هي بنت الهدى.. وقد ذكرَت في مقدمة (الفضيلة تنتصر) أنها كانت (بصدد إحياء جهاز إعلاميّ صامت، ونحن في بداية المنعطف).

لذلك فكّر جمال أن يضع (الفضيلة تنتصر) في طريق ابنة خالته.. فاستثمَر زيارته مع أمّه لبيت الخالة؛ حيث ترك الكتاب متعمداً في غرفتها.. كان يعرف أنه غير مرحَّبٍ به من قِبل والدها بسبب توجهاته اليسارية، وكان يريد لأسرته أن تكون كذلك.

محطّة ٧٦

كانت السماء تنثّ مطراً ناعماً منعشاً؛ وقد انبعثَت من الأرض رائحةٌ طيبة؛ ركب جمال مع والدته (التاكسي) إلى شارع فلسطين لزيارة خالته في ذلك الصباح الربيعيّ، وقد اعتادت والدته أن تزور أختها في أيام الجمعات.. في هذه الزيارة استقبل أبو فاطمة جمال ببرود؛ بل كان ينظُر إليه بحنق.. وعندما وقعَت عيناه على فاطمة ترتدي فستاناً طويلاً، وتغطي شعْرها بربطةٍ ملوّنة، عرف سرّ نظرات والدها الحانقة.. ابتسمَت خالته وهي تصافحه، فقبّل يدها..

كانت فاطمة تبتسم له بحبّ، وشكرَتْه على الكتاب، وطلبَت منه أن يُحضر مؤلفات بنت الهدى.. قالت له:

- قرأتُها مرّتين! أريد أن أصبِح مثل نقاء..

بدا عليها التأثر، وشعر جمال بالفرح لهذا التغيير.. يبدو أنّ فاطمة قد حسمَت أمرها وقررَت أن تتحجّب.. قرّرَت أن تكون مثل نقاء؛ نقيةً طاهرة كقطرة ندى..

قالت له:

- أعجبَتني كثيراً، ووضعَت الخطوط تحت الجُمل، وأشارت إلى حوار

نقـاء مـع خطيبهـا إبراهيـم حـول (سـعاد): قالـت نقـاء وهـي تريـه ألبـوم الصور:

- إنها جميلة؛ ليت روحها اكتسبَت شيئاً من هذا الجمال.
- أنـا لا أنكـر أنهـا جميلـة، ولكنّـي لا أستسـيغ هـذا النـوع مـن الجـمال المتكلَّـف.. الجـمال الحقيقـي هـو الجـمال الطبيعـي الطاهـر، وليـس الجـمال السـطحي الـذي تصنعـه صالونـات التجميـل.

ابتسَم جمال وهو يعيد الكتاب:

- إنه هدية.. وسأحضِر في المرّة القادمة مجموعةً من مؤلفاتها..

زادت ابتسامتُها ليشرق نورها ويزيدها جمالاً.

ابتسمَت والدته، وتمنّت من أعماق قلبِها أن تراهما يعيشان معاً تحت سقفٍ واحد، وأدركَت أُمّ فاطمة ما يدور في خَلَد شقيقتها، فابتسمَت هي الأخرى وراحت تنظر إلى ابنتها بأمل..

محطّة ٧٧

قرأَت فاطمة كلّ ما أحضرَه جمال من مؤلفات بنت الهدى، ووجدَت نفْسها تتشرّب كلّ ما تقرأ، وتاقت نفسُها للقاء هذه السيدة التي لا تبحث عن الشهرة.. كان همّها الوحيد أن تقود جيل الشباب، وخاصة الفتيات إلى ينابيع الحقيقة..

شعرَت فاطمة بأن نظرتَها إلى الحياة تتغير، وأدركَت أنّ للحياة وجهاً آخراً، أو أنها أكثر عمقاً مما كانت تتصوّر.. بين يديها كتابٌ جديد لبنت الهدى يحمل عنوان (كلمة ودعوة)، وسَرَّها أن تجدَ ما كانت تبحث عنه:

قرأَت في مطلع الكتاب أبياتاً شعرية:

إلى المجْد يا فتيات الهدى لنحيي مآثـرنـا الـخـالـدات
ونـمـضـي سـويـاً إلى غايـة لأجْـل لقاها تـهـون الحياة
ونـكـتـب تـاريـخـنـا نـاصـعـاً مضيئاً بـأعمالـنـا الـزاهـرات

وهي تهدي المجموعة الإسلامية: (إلى أختي المؤمنة في كلّ مكان، كمذكّرة أخوية تزداد بها مناعة ووقاية من السموم الأجنبية). وفي (التمهيد) تذكُر أنها تلقّت رسالةً مِن أختٍ مسلمة تسأل:

لماذا بالله عليك لا تصرّحين عن اسمك لنعرف من أنت ومن تكونين؟!

فتقول في الجواب:

أنا أولاً وبالذات أختك المخلِصة الدائبة على تتبُّع آثارك وتعقّب خطواتك بدافع الحبّ والعطف؛ وأنا أيضاً متطوعة مختارة لأجْل قضية الإسلام وحمْل مشعله الوهاج على قدر طاقتي.. وأنا أيضاً أريد أن أجعل مِن نفسي مثلاً ونموذجاً أجري عليه تجاربَ أدب الإسلام..

لك أن تتصوريني امرأةً قد تخطت سنّ الشباب أو كادت؛ قليلة الكلام كثيرة الفكر، لا تكتب إلا بعد طول تروٍّ وتأمُّل.. ومِن رأيها الخاص أنّ الكتابة لا يمكن أن تجتمع مع أيّ شيء آخر، فهي إذا كتبَت تركَت كلّ شيء، وإذا كان لديها أي شيء تركَت الكتابة..

وإذا شئتِ؛ فتصوريني شابّةً تَشعر بشعورك، وتمرّ بالمرحلة التي تمرّين بها، وتنظر إلى كلّ ما تنظر إليه، ولكن مِن وراء منظار الواقع والحقيقة.. فأنا لا أنظر إلى الإنسان تحت إطار اسمه أو مظهَره أو ملبسه، وإنما أنظر إلى روحه وقلبِه وأفكاره، وتذكّري دائماً وقبل كلّ شيء أنّي أخت لك متواضعة وقريبة منك كثيراً وأكثر مما تتصورين؛ لأن القرب قربٌ للروح والفكر والرأي..).

السّماء تفتح أبوابها في المساء

كانت فاطمة تشعر بدفء الكلمات؛ فكانت تتصور بنت الهدى في خيالها الوثّاب أختاً كبيرة ومعلمةً مخلصة، تقودها إلى طريق الخير والحق والجمال..

وجدَت فاطمة نفْسَها تفكر بابن خالتها، فكانت صورته لا تفارق خيالها البريء وأحلامها الوردية.

وفي يوم الجمعة، وكان يصادف ١٥ صفر/٤ شباط.. كانت فاطمة تترقب زيارة الخالة أُمّ جمال.. كانت نسائم شباط قارسة البرد، حاولَت أن تشغل الوقت بمطالعة كتاب (كلمة ودعوة)؛ فيتراءى لها وجه جمال فوق صفحات الكتاب كقمر ينير في سماء صافية..

ومضت ساعات النهار حزينةً كغيوم تائهة؛ وعندما اجتمعَت الأسرة لتناول طعام العشاء، بدت فاطمة ساهمة، فتبادلَ أبواها نظرات ذات معنى.. ونظرا إليها فأطرقَت بوجهها وراحت تعبث بالملعقة وتتفادى النظرات، حتى أخواتها الصغيرات انتبهن إلى حالتها الجديدة!

لمْ تتحمل فاطمة لسْع النظرات المستغرِبة، ووجدَت نفْسها عازفةً عن تناول الطعام، فنهضَت وأوت إلى غرفتها، لتستغرق في موجةٍ من بكاء مريرٍ وتذرف الدموع بصمْت..

وفي ضحى اليوم التالي قررَت فاطمة أن تذهب إلى بيت خالتها أُمّ جمال..

كانت السماء غائمةً ونسائم شباط أكثر برودة؛ أحكمَت فاطمة ربطتَها وارتدت عباءتها.. كانت قد اقتنت العباءة من مدينة الكاظمية في أول زيارة للإمام الكاظم وحفيده الجواد، وقد انشرح قلبُها لمظاهر الحجاب في هذه المدينة الصغيرة التي تغفو على نهر دجلة.

سيارة التاكسي تتجه نحو الجسر الصغير الذي يعبر (قناة الجيش)، شعرَت

أنّ هذه القناة تفصل بين عالمين..

البيوت في مدينة الثورة صغيرة، وكلّ بيتٍ ينهض على أرضٍ محدّدة مساحتها ١٤٤م٢ (٦×٢٤م).. وتُجاوِر المدينة أحياءٌ صغيرة بدءاً من «الشعب» و«البلديات» و«المشتل» و«العبيدي» و«الأُورفلي» و«الرشاد» و«الحبيبية» و«الكمالية» و«الفضيلية» و«جميلة»..

وفي مدينة الثورة تسكن العوائل الفقيرة؛ حيث نزَح العديد من أبناء الجنوب إليها.. عمرها بعمر فاطمة، وكأنها وُلدَت مع ميلادها..

يسكن فيها مزيجٌ من عشائر الجنوب التي اضطرتْها الظروف إلى النزوح إلى بغداد..

عشائرٌ جنوبية عديدة توزعَت على مئة قطاع، في كلّ قطاع ألف بيت.. آلاف النازحين، من عشيرة السواعد، وبني لام، والبو درّاج، وبني مالك، والبو محمد، والأزيرج، والسرّاي، وكعب، والسودان، والبيضان، وكنانة، والحلاف و.. جاءت تحمل إرثَها القبليّ والعشائري، وتقاليدها الحسنة والسيئة..

عندما ترجّلَت في حيّ الأكراد أمام الأزقّة القريبة من بيت الخالة أُمّ جمال؛ كان (الجامع) المُطلّ على الشارع الرئيس يبثّ تلاوةً حزينة من خلال مكبّرات الصوت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[1]، وبالرغم من مرور أسبوع على ذكرى الانقلاب الذي قاده الحرس القوميّ البعثيّ في ٨ شباط ١٩٦٣م؛ إلا أنّ اللّافتات التي تمجّد (عروس الثورات)، ما تزال معلّقةً في الشوارع تتحدّى

١. الأعراف: ٤٠

مشاعر الناس في هذه المدينة الحزينة.

فوجئَت أُمّ جمال وهي تفتح الباب بفاطمة متلفّعة بعباءتها، في عينيها تساؤلٌ وآثار دهشة، قالت فاطمة وهي تبتسم:

- الّلي عنده عنوان ما يضيّع

قادتها أُمّ جمال بشوق وحبّ، وقبل أن تسأل قالت:

- جمال راح مع أصدقائه للزيارة..

وأخبرَتها حول ذهاب جمال إلى النجف الأشرف والمشَاركة في زيارة الأربعين مشياً على الأقدام.. أدركَت فاطمة أنها لن تستطيع العيش دون جمال.. لقد تدفّق نبْع الحُبّ في قلبِها، وأضاء نورُه جوانح صدْرها.

كان جمال قد تعرّف في الشهور الأخيرة على عددٍ من الأصدقاء، بعضهم من جيرانه الطيبين وبعضٌ زملاء له في المعهد، وكلُّهم في عمره تماماً باستثناء «صباح»، فقد كان يكبُره بعامٍ واحد فقط، ولكنْ جمال يتصوره أكبر بكثير، فـ (صباح) ينبض في صدره قلبٌ كبير يكاد يسع الجميع؛ كان ينظر إليه كما ينظر التلميذ إلى معلّمه ومربيّه..

كانت فكرةُ الذهاب والمشارَكة في زيارة الأربعين مشياً، فكرة صباح، وقد تحمّس لها كثيراً.. كما تحمس لها رفاقه: كريم، وهادي، وعبد الأمير.. صباح طالبٌ في الجامعة التكنولوجية، وكريم طالب في معهد التكنولوجيا - قسم الكهرباء، وهادي طالب في معهد الطبّ الفنّي، أما جمال فقد تمّ قبوله في معهد التكنولوجيا - قسم الكيمياء..

جمعَهم همٌّ واحد وهدفٌ واحد وحلمٌ واحد.. كانوا يتطلّعون إلى غدٍ مشرق وحياةٍ مفعمة بالحرية والكرامة الإنسانية؛ شبابٌ في مقتبل العمر يحملون

هموماً كبيرة، ويحلمون بحياة عظيمة، وينظّمون لقاءاتهم بعيداً عن عيون البعثيين الأوغاد، الذين لا ينفكّون يكتبون التقارير الحزبية الجاسوسية..

كانوا ينظّمون لقاءاتهم الدورية في المتنزّهات العامة والساحات، وفي الزيارات. كانت لديهم زيارات لمراقد أهل البيت عليهم السلام خاصة مدينة الكاظمية؛ حيث ينهض مرقد الإمامين الكاظم وحفيده الجواد، وفي لقاءاتهم الدورية كانوا يحفظون آيات القرآن الكريم وأدعية الصحيفة السجادية وخاصة أدعية الأيام والمناجاة الخمسة عشر الّتربّة بالقيم الأخلاقية والإنسانية، وأحياناً يتناقشون في بعض الكتب التي كان صباح يحضرها مِن شارع المتنبي.. بعض الكتب كانت ممنوعةً، ولا يجدها الباحث في معارض المكتبات؛ لأنّ أصحابها كانوا يخشون بطْش البعثيين، فكتاب (الإسلام يتحدى) و(الإسلام يتحدى العلم) مثلاً كان ممنوعاً، وكان أصحاب المكتبات يبثون لدى الثقاة كلمة سرٍّ مِن قبيل «مُهمَلات»، يكفي أن تقول له: عندك مُهمَلات، فيبادر لاستخراج مجموعة كتب في كيس، يسلّمها للمشتري ويهمس له بالسعر؛ مرّة جاء صباح بكتاب (شروط النهضة) للمفكر الجزائري مالك بن نبي، واستهوَته الأنشودة الرمزية التي تصدّرَت الكتاب؛ حتى أنّه حفظها:

- أي صديقي!
- لقد حانت الساعة التي ينساب فيها شعاع الفجر الشاحب بين نجوم الشرق
- وكُلّ مَن سيستيقظ بدأ يتحرك وينتفض في خدر النوم وملابسه الرثّة
- ستحمل إشعاعات الصباح الجديد ظِلّ جهْدِك المبارَك في السهل الذي تبذر فيه.. بعيداً عن خطواتك
- وسيحمل النسيم الذي يمرّ الآن البذور التي تنثرها يداك.. بعيداً

عـن حقلـك.. فـي الخطـوط التـي تتنـاءى عنـك.. فـي عمـق المسـتقبل.

أما كتاب (خطوات على طريق الإسلام)، فقد احتفظ له بنسخة، وكان يطالع فيه باستمرار.. في رأيه أنّ الكتاب يحمل برنامج عملٍ متكامل؛ وقد أبدى اهتمامه بفصلٍ يتحدّث عن الموقف من الانحرافات الفكرية العامة؛ لاحظَ فيه المؤلف وجود توجّهٍ لدى بعض العاملين للإسلام يدعو إلى ضرورة حفْظ عقائد العوامّ ورعايتها من كُلّ ما يزلزلها، والفكرة كما يقول صحيحة في طبيعتها ومعطياتها العملية؛ لأنّ عامّة الناس يمثّلون القوة الضخمة التي تتحرك فتُحرِّك العمل الديني في كلّ مجالات الحياة؛ لأنّ التزامها الديني وإصرارها عليه يحقق ذلك كلّه.. وهذا ما يجعل القيمة الكبيرة لحركة الدعوة الإسلامية في توجيههم وتركيزهم وإثارة مشاعرهم الدينية، في هزّة روحية تحرِّك العاطفةَ لخدمة العقيدة، وتثير المواقف لحماية الإيمان.

كان جمال قد ناقش هذه المفاهيم مع رفاقه خاصة، وقد تأكدَ لديهم عزمُ سلطات البعث هذه المرّة على التدخل ومنْع زيارة الأربعين مشياً على الأقدام، وقد نفّذ ذلك فعلاً على طريق بغداد كربلاء؛ حيث انتشرّت المفارز المسلحة وعناصر الأمن العامة، وكثّفت مِن حملات المراقبة والتفتيش، وكانت تقوم بإنزال المسافرين من سيارات النقل وخاصة الباصات واستجوابهم عن المدينة التي يقصدونها..

كانت فكرة صباح السفر إلى مدينة النجف الأشرف والمشاركة في المواكب المتجهة إلى كربلاء المقدسة.

وفي هاجس جمال ورفاقه أنّ الدعوة التي أطلقها أئمة أهل البيت عليهم السلام لإحياء هذه الذكرى، أو للحزن العميق على المأساة، كانت تمثّل خطةً إسلامية للربط العاطفي بين الإنسان والمأساة.. وقد عبّر أحد الأئمة الأطهار عن ذلك بقوله: أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا..

مدينة النجف الأشرف تسودها مظاهر الحزن العميق، ولمْ تستطع الاحتفالات المفتعَلة بمناسبة (عروس الثورات) أن تبدِّد ولو شيئاً ضئيلاً من أجوائها الحزينة..

وصل جمال ورفاقه إلى المدينة الحزينة عصراً، وقادهم (صباح) إلى بيت أحد الأصدقاء بالقرب من مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بطل الإسلام وسيفه الذي لم يقهر..

الحسين يولد من جديد

مدينة النجف يسودها التوتر والحذر، ويلفّها حزنٌ عميق. كانت السلطات قد عمدَت ومنذ سنوات إلى النفوذ إلى الشعائر الكربلائية من خلال مواكب (حكومية) تردِّد أشعاراً تشيد بـ (إنجازات الثورة) و(مكتسباتها)، وتذكُر اسم الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه صدام؛ ولكن كلّ هذه الإجراءات لمْ تستطع أن تشوش على المشهد الكربلائي، وما يشتمل عليه من قيم الثورة على الظلم والظالمين واعتزازٍ بكرامة الإنسان؛ لتكون هي القيمة العليا في الحياة..

استيقظ جمال على صوت صباح وهو يرفع أذان الفجر، وكان صاحب الدار طالباً في الحوزة العلمية من أهالي البصرة، وعُرِف جمال أنه مِن السادة، فقد كان يعتمّ بعمامةٍ سوداء، وقد وقف ليؤمَّ ضيوفَه، وانسابت سورة الحمد بصوت رقيق، وفي الركعة الثانية قرأ سورة النبأ.. ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ۝١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً ۝١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ۝٢١

لِلْطَّاغِينَ مَآباً ﴿٢٢﴾ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾[1]..

وشعرَ جمال بالرهبة والخشوع لله رب العالمين.

كان صباح يوم الخميس ١٤ صفر / ٣ شباط بارداً، وقد وُزّعت منشورات تدعو إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام مشياً على الأقدام؛ وتندّد بالسطات وإجراءاتها التعسُّفية في منع الشعائر الحسينية وزيارة الأربعين مشياً على الأقدام.. كما أُلصِقت بياناتٌ مخطوطة في الأسواق والشوارع الرئيسة، تدعو الأهالي إلى التجمّع غداً في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ١٥ صفر..

الشمس ما تزال خلْف جبال من السُّحب بالرغم من انتصاف النهار.. كان مرقد الإمام مكتظاً بالزّوّار الوافدين من مدن الجنوب، وقد استمرّ توافد الزائرين إلى المساء..

بعد أداء صلاة العشاء داخِل الحرم الطاهر.. بدأَت قراءة دعاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المعروف بـ (دعاء كميل)، وكان الشهيد كميل بن زياد قد سمع الإمام أمير المؤمنين يدعو به بعد الانتصار الساحق في معركة الجمل ودخول مدينة البصرة، وكان الإمام قد أقام في المدينة بضعة أسابيع قبْل أن يتوجه إلى مدينة الكوفة واتخاذِها عاصمةً للدولة. ودمعَت عينا جمال وهو يردّد هذا المقطع من الدعاء المعروف بـ (دعاء الافتتاح):

- (اللهم إنّا نرغب إليك في دولةٍ كريمة تعزّ بِها الإسلام وأهلَه وتذلّ بها النفاق وأهلَه؛ وتجعلنا فيها مِن الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بِها كرامة الدنيا والآخرة). أجلْ الكرامة الإنسانية هبة الله سبحانه للإنسان.. إنها كالحياة بل هي جوهر الحياة.. فكما أنّ الانتحار وقتْل النفس أمرٌ ترفضه الشريعة الإلهية،

---

١. النبأ: ١-٢٣

كذلك التنازل عن الكرامة والخنوع للظلم أمرٌ محرّم.. ومِن أجْل ذلك هتف الإمام الحسين بأعلى صوته: (هيهات منّا الذلّة)! وهتف أيضاً: (لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً).

وقال نجْلُه الإمام زين العابدين: لا يحلُّ للمؤمن أن يذلّ نفسه!

غداً ستبدأ المواجهة مع نظام البعث الأموي الدموي.. غداً في الساعة العاشرة سينطلق نداء التحدي: يا حسين! رياح شباط تفوح بين الأزقة، وقد تكاثفَت الظلمات وتراكمَت الغيوم؛ غيوم تختزِن الصواعق والرعود..

رغم ولولة الرياح الباردة، كانَت غرفة الضيوف تنعم بالدفء والسكينة في ساعة السحر.

نهض جمال - كما هو دَأْبه - في الساعة الأخيرة من الليل، وفرَش سجادة الصلاة في زاوية الغرفة يناجي الربّ بصوت رقيق..

- اللهم يا ملاذَ اللائذين

ويا معاذ العائذين

ويا منْجي الهالكين

ويا عاصم البائسين

ويا راحم المساكين

ويا مجيب المضطرين

ويا كنْز المفتقرين

ويا جابر المنكسرين

ويا مأوى المنقطعين

ويا ناصر المستضعفين

ويا مجير الخائفين

ويا مغيث المكروبين

ويا حصن اللاجئين

إن لم أعُذ بعزتك فبمن أعوذ؟!

وإن لم ألُذ بقدرتك فيمن ألوذ؟!

كان صوته ينساب كساقية تترقرق في وادٍ مفعَمٍ بالصمت، وتألّقَت في ذهنه كلمات الإمام زين العابدين وهو يقول:

- (الدنيا سِنة، والآخرة يقَظة، ونحن بينهما أضغاث أحلام)، وهوّمت عيناه.. فرأى نفْسه يسير في طريق كربلاء، ولكنه طريقٌ جبليّ مليء بالمنعطفات؛ لم يكن وحده كانت معه فتاةٌ شابة ترتدي حلّةً بيضاء لم يتبين وجهها جيداً، كانت تسير خَلفه على بُعد خطوةٍ واحدة فقط.

واستيقَظ مِن حلمه على صوت أذان الفجر يرتفع من مكبرات الصوت فوق مآذن المرقد الطاهر للإمام أمير المؤمنين..

بقيَت ساعات معدودات على بدء الملحمة بين إرادتين؛ إرادة نظام البعث التي قضت بمنع زيارة الأربعين مشياً على الأقدام؛ وإرادة شعبٍ مقهور مكبّل بالأغلال تتحدى المنع الحكومي المفروض بقوة الحديد والنار.

وفي تمام الساعة العاشرة من ضحى يوم الجمعة، ظهَر في جوار المرقد

الطاهر تجمُّعٌ لعدد من الفتيان يطلقون هتافات: يا حسين! وتلا ذلك بَعد دقائق قليلة اندفاعُ موجاتٍ من الحشود الشعبية تتدفق من أحياء المدينة؛ من المشراق والعمارة والحويش والبراق لتلتحم الجموع أمام الصحن الشريف المتاخم للسوق الكبير، ولتشكّل تظاهرةً غاضبة جابت السوق الكبير وشارع المصارف وشارع الإمام زين العابدين وسوق الحويش، وقد بلغ عدد المتظاهرين ما يناهز الثلاثين ألفاً تجمّعوا احتجاجاً على حظر زيارة الإمام الحسين مشياً على الأقدام، استمرّت التظاهرة ثلاث ساعات، وشهدَت تعاطفا كبيراً من كسبة المدينة، فتعطّلت الأسـواق، وكانت الشعارات الغاضبة تنطلق من الحناجر الثائرة:

- وما النصر إلا من عند الله
- يد الله فوق أيديهم
- أبد والله ما ننسى حسيناه
- يا صدام شيل ايدك، وانگلترة ما تفيدك
- حسين دخيلك منعونا
- يا صدام شيل ايدك، جيش وشعب ما يريدك
- يا جاسم[1] گل للبكر.. ذكر حسين ما يندثر!

زجّت السلطات بكُلّ قواتها الأمنية، وحاولَت محاصرة المدينة الثائرة، وتطورَت التظاهرة لتأخذ شكل الانتفاضة الشعبية العارمة..

وانهارَت هيبة النظام وتبددت رهبَته، وظهرت عناصره كالجرذان المذعورة، وارتفعَت هتافاتٌ قوية:

- لو قطّعوا أرجلنا واليدين، نأتيك زحفاً سيدي يا حسين

١. جاسم الركابيّ، محافظ النجف الأشرف.

وكانت راية خضراء تخفق فوق هامات الرجال مكتوب عليها (نصرٌ من الله وفتح قريب).. وراية أخرى مكتوب عليها (يد الله فوق أيديهم).

وقد ظهر واضحاً أنّ الشعب يثأر من أجْل كرامته المهدورة، وأنّ نظام البعث الغاشم سيبقى جسماً غريباً، وسوف يلفظه الشعب عاجلاً أم آجلاً.

كانت التظاهرة تزداد حدّةً وقوة، وتستقطب آلاف الثائرين، كما لو أنّ التاريخ يعيد نفْسه من جديد؛ كُلّ أرض كربلاء، وكلّ يوم عاشوراء.. لقد استيقظ الشعب.. وها هي هتافاته تصدح عالياً في ضمير الأجيال:

- أهل النجف يا أمجاد.. راياتكم رفعوها
- إسلامنا ما ننساه.. أيسوا يا بعثية

وحطّم المتظاهرون عشرات الصور لأحمد حسن البكر رئيس الجمهورية، ونائبه صدام..

ورفع رجلٌ لافتة كبيرة مكتوب فيها:

قدّم النجف أربع فدائية.. شرطة البعث شرطة جبانية..

خرجَت التظاهرة عن سيطرة القوات الأمنية، وراحت تشقّ طريقها نحو كربلاء.

وعندما وصلَت المسيرة الغاضبة إلى خان الربع (ربع المسافة بين المدينتين المقدّستين)، واجهت قوات النظام من الشرطة وعناصر الأمن..

تمركَز الثوار داخل الخان، وكانت عناصر أمن النظام وقواته قد انتشرت حوله، كما حاولت عناصر من المخابرات التعرّف على العناصر القيادية التي كانت تتحرك بأقصى سرعة لحماية الزائرين من أيّ هجوم محتمل؛ وظهرَت شخصية «صاحب رحيم أبو گلل»، الذي كان يوجّه معاونيه لحراسة مداخل

الخان، ووزعت كلمة السرّ (حيدر)، وأُقسم أمام الحشود الثائرة أنّ البعثيين لن يدخلوا إلا على جثتي!

وقام عددٌ من الثوار بجمع الحجارة فوق سطح الخان للدفاع وصدّ هجوم مرتزقة البعث المنحطّ.

قرّرت قيادة المسيرة الكربلائية مغادرة خان الربع كتلةً بشرية متراصة ومواجهة قوات النظام. لقد اعتبرَت من دروس العام الماضي عندما غادرَت خان الربع مجاميع منفصلةً، وسهُل على البعثيين الأوغاد السيطرة عليها وتشتيتها وإجهاضها، أما اليوم فهي تبدو أكثر وعياً وحذراً وتأهُّباً؛ وقد تم الاتفاق على كلمة السرّ، كما تشكّلت لجنة مهمتها الكشف عن المندسّين؛ حيث أُطلِق على مَن يُكشف عنهم مصطلح (برغش).

تمّ إغلاق الطريق العام، فقرر المتظاهرون المبيت في خان الربع، وكانوا يعانون من الجوع والظمأ، فقد عمدت قوات النظام إلى رمي الطعام وإراقة مياه الشرب، الأمر الذي ضاعف من حماسة المتظاهرين. كان جمال ورفاقه صباح وكريم وهادي في خضمّ المتظاهرين الذين قُدِّر لهم أن يكتبوا تاريخ هذا الشعب المقهور في ليل البعث الطويل!

ارتفع الأذان، واستيقظت الجموع وهي تشعر بالعزم لتستأنف مسيرتها في الطريق إلى كربلاء..

وانطلق صوت البوق، وردّد الثوار الهتاف الخالد:

- يا حسين! يا حسين! يا حسين!

نهضوا بكل حيوية وكأنهم لم يمضوا ليلةً صعبة قارسة البرد، كان صوت الشاب الباسل (محمد سعيد البلاغي) يدوّي في غبش الفجر: يا حسين! فتردّد خلفه آلاف الحناجر الغاضبة: يا حسين!

السّماء تفتح أبوابها في المساء

كانت الدماء تفور في عروقهم بالرغم من برودة شباط الشديدة، اندفعت الحشود نحو الباب؛ لتواجه رصاص البعثيين الأوغاد؛ ولشدة وتماسِك الحشد الجماهيري الحسيني فرّ الجبناء، وشوهد أحد رجال الشرطة وهو يركض خلْف سيارته التي فرّت وتركتْه تحت رحمة المتظاهرين الذين تركوه وشأنه.. لقد تعلموا من أميرهم أمير المؤمنين عليّ ألا يطاردوا الهاربين والفارّين من أرض المعركة!

وكان مشهداً رائعاً عندما جاءت سيارة شرطة من مدينة النجف وكان في داخلها ثلاثة عناصر من الشرطة، ترجّل اثنان منهم وراحا يطلقان الرصاص نحو المتظاهرين، الذين بدل أن يفرّوا تقدّموا نحوهما بكل بسالة، فاضطرا إلى صعود السيارة والهروب باتجاه كربلاء.

أحكَمَ الثوار السيطرة على الطريق العام، وانطلقت الهتافات الحماسية:

- سجَّلها النجف ثورة حسينية.. شرطة البعث شرطة جبانية!
- ماكو مؤامرة تصير على الحسين بن علي!
- يجاسم گله للبكر تره حسين منعوفه!
- يبو فاضل گوم لينه.. عفلق اتأمّر علينه..

وكان صوت «صاحب رحيم أبو گلل» يدويّ وهو يحثّ الجماهير على الاتحاد ونبْذ التفرقة، والحذَر من المندسّين والمشاغبين؛ لأنّ البعثيين لا يكفّون عن إثارة الفتن.. وأنّ المسيرة خرجت مِن أجْل قضية حقّ، وأنّ طريق الحسين يحتاج إلى التضحيات. ثم كشَف عن اسمه الحقيقي من أجل بثّ روح الحماسة في نفوس الثائرين..

كانت الراية الكبرى يحملها الشاب الباسل ناجح محمد كريم، وعندما لاح خان النُّصّ (منتصف المسافة بين المدينتين) هتف عالياً:

- هلّه هلّه يا البعث يالحاقدين.. بالنجف ما ينمحي ذكر الحسين!

وتمكنَت المسيرة الكربلائية التي اجتذبَت إليها أعداداً كبيرة من الوصول إلى خان النُّصّ عند المساء، في اللحظات التي تتفتّح فيها أبواب السماء.

واتخذ قادة المسيرة تدابير أمنية شديدة؛ بعد أن دخلَت مرحلةً خطيرة جداً. تم توزيع كلمة السرّ (صمّونة وبيضة)، وكُلِّفت مجموعاتٌ بأعمال الدورية والكشف عن المندسّين..

حاولَت عناصر أمن النظام البعثي مهاجَمة الثوار، وتسلّقت مجموعة منهم جذوع النخيل والقيام بإطلاق الرصاص؛ فردّ الثوار بهجومٍ مضادّ، ونجحَت ثلاث سيارات تابعة للأمن في اختطاف اثني عشر متظاهراً. وفي صباح اليوم السابع عشر من صَفر تمكنت الحشود الغاضبة من اقتحام مبنى الناحية وتحرير المعتَقلين؛ وخلال ذلك امتزجَت هتافات الثوار مع أزيز الرصاص واستشهدت امرأة، وهوى طفل مضرّجاً بدمائه الطاهرة الزكية..

وبدل أن تتشتّت الجموع تدفّقت الجماهير لتنضمّ إلى صفوف الثائرين، ولتواصِل المسيرة نحو كربلاء، وقد بلغ الحماس ذروته عندما فتح أحد الثوار وهو من السادة يدعى عبد الخالق العوّادي صدْره لمرتزقة البعث، وصرخ في وجهه قائلاً:

- اضرِب أنا سمعت بسقوط شهيدين وأريد أن أكون الثالث!!

ارتجف المرتزق وسقطَت بندقيته من يده!! حاولت السلطات الغاشمة احتواء المسيرة التي وصلت أصداؤها إلى مدينة كربلاء بمزيدٍ من إجراءات القمع والبطش؛ إلا أنها أدركَت أنّ كلّ ذلك يؤدي إلى العكس، واستحال الثائر الحسيني إلى بركان متأجّج، ولسان حاله يقول:

- «إنّ قلبي مثْل نار كلّما هبّت عليه الريح يزداد استعاراً».

السّماء تفتح أبوابها في المساء

أطلّت شمس شباط في اليوم الثامن عشر من صفر حزينةً وراء جبالٍ من الغيوم.. وكانت المسيرة الكربلائية تتقدم نحو مدينة الدم والشهادة.. وظهرَت في الأفق طائرتا ميغ ٢١ الروسية لتحلّق على ارتفاعٍ منخفض فوق هامات الثوار، وتكسِر حاجزَ الصوت، في خطوةٍ لإرهاب الثائرين.. وتحطَّم أثرَ ذلك زجاج السيارات لشدة الدويّ.. بعدها وصلت أرتالٌ من الدبابات والمدرعات والمصفَّحات..

وحدثَت الكرامة الكبرى؛ فقد سقطت إحداهما في بحيرة الرزّازة القريبة من كربلاء المقدسة، والثانية في ضاحية (المسيّب)، ومصرْع طياريها؛ أحدهما النقيب نجيب الكبيسي من سَكنة حيّ الزوراء في بغداد، وظهَر تقريرٌ بعد فحْص حطام الطائرتين بأن سبب سقوطهما يعود إلى خللٍ فنّيّ!! فردّ أحدهم قائلاً: بل خلل حسينيّ!!

ولقد كسرت المسيرة الكربلائية حاجزَ الخوف، وحطّمت رهْبة البعث. لمعت البروق في السماء المثَقلة بالغيوم، ودوّت الرعود تقطّع أوصال الأرض، وتدفّقت أمطارٌ غزيرة، وكانت الحناجر الثائرة لا تكفّ عن إطلاق النداء الخالد:

- يا حسين! يا حسين! يا حسين!

وكانت قيادات المسيرة قد كشفت في ليلة الثامن عشر من صفر عن عشرات المندسّين من عناصر أمْن النظام ومرتزقته، فتمّ حبسُهم في إحدى الغرف. وكانت كلمة السرّ في تلك الليلة (عودة شخاط)! وكانت كلمة (برغش) تُطلَق على المندسّين البعثيين؛ حيث تمّ الكشف عن عشرات (البراغش) في تلك الليلة العاصفة..

كانت البراري المحيطة بالمسيرة مسرحاً لعواصف مطرية رعدية.. وكانت السماء حلبةً للبروق والرعود.. واستشهد الشابّ الباسل عبد الأمير الميالي متأثراً

بجروحه، وفي اللحظات الأخيرة طلب من رفاقه أن ينشروا قميصه الدامي فوق ضريح سيد الشهداء..

وتحوّل قميص الشهيد إلى راية للثورة، ولواء للمسيرة الجماهيرية الحاشدة التي كانت تزحف باتجاه (خان النخيلة)؛ وارتفع هتاف الحشود:

- قدّم النجف أربع فدائيّه.. گولو للبكر كلّ واحد بميّه!

كان قادة المسيرة يدركون حراجة الظروف، فهم يواجهون بأيديهم وقبضاتهم والحجارة والعصي، نظاماً مُدجّجاً بالسلاح، وقد يقوم بقصفهم بطائرات الميغ!!

قذف الله سبحانه في قلوب البعثيين الأوغاد الرُّعب؛ فاستنجد محافِظ النجف بالمرجع الدينيّ السيد محمد باقر الصدر، وطلب منه التدخل لحلّ الأزمة، وأخبره بأن القيادة في بغداد تنوي رفْع المنع وإلغاء الحظر المفروض على الزيارة شرْط التوقُّف عن إطلاق الشعارات والهتافات المعادية للنظام والمسؤولين. رأى السيد الصدر أنّ المسيرة قد نجحت في تحطيم حاجز الخوف في النفوس، وتأججَت الروح الثورية في قلوب العراقيين؛ الروح الثورية؛ فآثر أن تصِل المسيرة مدينة كربلاء لتلتحم مع حشود الزائرين القادمين من مدن العراق الأخرى.. لذلك أوفد السيّدَ محمد باقر الحكيم ليبلغهم إلغاء المنع مقابل التوقُّف عن إطلاق الشعارات المعادية للسلطات..

كان الطريق إلى خان النخيلة تغمُره الظلمات، والبروق والصواعق تسطع بين السحب المتراكمة، والرعود تزلزِل الأرض، والعواصف المطريّة تشتدّ..

التقى نجْل المرجع الراحل قادة الانتفاضة الحسينية الكبرى، وهُم كلٌّ مِن: يوسف الأسديّ، وصاحب رحيم أبو گلل، وجاسم صادق الإيروانيّ، ومحمد سعيد البلاغيّ، وناجح محمد كريم، والحاج عباس هادي أبو عجينة، وكامل ناجي مالو، وغازي جودي خوير، وعبد الوهاب الطالقانيّ.

وأبلغَهم تحيات السيد الصدر ودعمَه وتأييده ومساندته لهم، ونقَل لهم العرْض الحكوميّ بإلغاء المنع المفروض مقابل التوقُّف عن إطلاق الشعارات السياسية؛ فرحّبوا بذلك، واقترحوا عليه أن يشاركَهم في المرحلة الأخيرة من المسيرة، ولكنه اعتذر لأسباب صحّية..

كان الثوار يتهيبون المواجَهة الحاسمة إذا ما استمروا في مواصلة التحدّي، ولذلك تنفّسوا الصعداء عندما أخبرهم السيد محمد باقر الحكيم برفْع الحظر، وكانت تساوِرهم مخاوفٌ من غدْر البعثيين.

عاد السيد الحكيم إلى النجف، والتقى المحافظ جاسم الركابيّ في منتصف الليل، وأبلغه بنتائج زيارته، ففوجئ المحافظ بذلك، وقال إنه سيتصل بالقيادة في بغداد، وبعدها سوف يتصل بالسيد الحكيم صباحاً..

كان السيد الصدر ينتظر عودة السيد الحكيم، فجاء بعد لقاء المحافظ، وأخبره بتفاصيل رحلته..

وفي اليوم التالي اتصل المحافظ بالسيد الحكيم قبْل انتصاف النهار، وقال له: إنّ أصحاب الشعائر الحسينية قاموا بقطْع الطريق بين كربلاء والنجف، وأنّ القيادة اضطرت لاستخدام الجيش والقوات المسلحة.. كان مِن الواضح أنه يكذب، والحقيقة أنّ نظام البعث أراد أن يكسِر شوكة الثوار، فدفع بأحد ألوية الجيش المدرّعة لمهاجمة الزائرين العزّل، وإلقاء القبض على المئات منهم؛ فعمدت مجموعاتٌ من الزائرين إلى دخول البساتين واتخاذِها غطاءً لمواصلة السير نحو زيارة الإمام الحسين عليه السلام .. كانت الجموع تتحرك على ضفاف النهر إلى أن وصلَت مدينة كربلاء المقدسة متجهةً إلى مرقد أبي الفضل العباس، ومن ثمّ مرقد سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين، وكان أحد الشبّان البواسل يحمل قميص الشهيد الدامي ويتجه نحو المرقد وقد بلغ الزحام ذروته، وتعاوَن الثوار في حمْل القميص المدمّى من يدٍ إلى يد إلى أن وصل الضريح ليُرمى فوقه؛

تنفيذاً لوصية الشهيد الذي هوى في اشتباكات (خان النُّصّ).

كانت الجماهير تصرخ بأعلى صوت: يا حسين! يا حسين! وظهرت لافتةٌ مكتوبٌ عليها: (قدّم النجف أربع فدائية)، فكانت الحشود تهتف: (شرطة البعث شرطة جبانيّة) و(گلوا للبكر كلّ واحد بميّه)..

كانت السلطات قد زجّت بآلاف من عناصرها من الأمن والمخابرات، وتمّ اعتقال الألوف من حشود الزائرين بمن فيهم من الأطفال والنساء والشيوخ، ليساقوا إلى سجون النجف وكربلاء ومديرية الأمن العامة في بغداد وسجْن رقم واحد العسكري. وكان نظام البعث المجرم قد أصدر حالة الاستنفار القصوى بعد أن لاحظ وجود حالات تعاطف بين العسكريين جنوداً وضباطاً مع الثائرين؛ حيث كانوا يقومون بإطلاقهم في الطريق ويحثّونهم على الهرب والتواري عن الأنظار!

جاء الوغد الغادر جاسم الركابيّ ليعتقِل بنفسه السيد محمد باقر الحكيم ويسلمه إلى قوات الأمن، وذلك بعد استدعائه إلى بيت السيد مصطفى جمال الدين؛ حيث نُقِل بعد ذلك إلى جهاز المخابرات العامة، واستطاع صباح وجمال وكريم وهادي الإفلات من قبضة المجرمين والعودة إلى بغداد بعد انتهاء الزيارة..

كان «صباح» على اتصال مع أشخاصٍ مهمين، لمْ يكن جمال قد تعرّف عليهم بعد؛ لذلك كان جمال وكريم وهادي ينظرون إليه كأخ أكبر يتعلّمون منه، ويسيرون على خطاه..

في الطريق أخبرَهم أنه لاحظ بعض الملثَّمين المندسّين، وكانوا يلتقطون الصور من تحت معاطفهم للشباب للتعرّف عليهم فيما بعد. وأضاف: لا أستبعد أن يراجعوا سجلات الحضور في الجامعات والمعاهد وحتى الثانويات، واعتقال المتغيّبين خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ١٧ و١٨ و١٩ صفر، والتحقيق معهم.

- حاوِلوا تدبير الأعذار؛ وكونوا على حذر!

بعد أيامٍ من العودة إلى بغداد، التقى صباح رفاقه في متنزّه الزوراء، وأخبرهم بما جرى في مدينة النجف أيام زيارة الأربعين.

قال صباح: في يوم السبت ١٨ صفر عندما كنّا في خان النُّصّ، جاء مدير أمن النجف (أبو سعد) إلى بيت السيد محمد باقر الصدر، وطلبَ مرافقَته إلى بغداد، وأخبره أنّ عِزّت الدوريّ وزير الداخلية «يريد يشوفك»!

تمّ اقتياد السيد الصدر إلى بغداد، وهناك تعرّض لمعاملةٍ قاسية، وسمع تهديداً ووعيداً من مدير الأمن العام (فاضل البرّاك)؛ قال له: (إننا نعلم أنك مَن وراء هذه الأعمال العدوانية، وأنت أرسلْت محمد باقر الحكيم ليحرِّض الشعب علينا.. سوف ننتقم منك في الوقت المناسب.. وهدّده بالإعدام..

وفي اليوم التالي ١٩ صفر افتعلَت قوات الأمن مسرحية القبض على شخصٍ سوريّ (يُدعى محمد علي نعناع) يريد وضْع قنبلة في صحن أبي الفضل العباس عليه السلام؛ ثم شنّوا حملة اعتقالاتٍ واسعة، وكانت مكبرات الصوت تحذّر من المندسّين (عملاء النظام السوريّ)!

كان ذلك قبل وصول مسيرة المشاة التي سطّرت ملحمةً كبرى وهزّت أركان النظام؛ لأنّ ما حصل كان انتفاضةً شعبية فضحَت أخلاقيات النظام البعثيّ المنحطّ، وأثبتت أنه مجرَّد عصابةٍ إجرامية يقودها مجموعة من الأشقياء، وفي طليعتهم طاغيةٌ وذئب كاسر يُدعى (صدام).

قرابين الكرامة

في يوم ٢٣ شباط ١٩٧٧م والمصادف ٤ ربيع الأول تشكّلت محكمةٌ خاصّة تحت عنوان محكمة الثورة برئاسة عزّت مصطفى وزير الصحة، وفليح حسن

الجاسم وزير الصناعة، وحسن العامريّ وزير التجارة، واستغرق عقْد الجلسة أربع ساعات فقط لتُصدِر بعدها أحكاما بالإعدام على ثمانية من قادة الانتفاضة!!

أطلق الإعلام البعثيّ على حوادث الأربعين مصطلح (حوادث الشغب)؛ بالرغم مِن كونها انتفاضةً شعبية كشَفت عن واقع الشعب العراقي وموقفه من نظام حزب البعث وأفكاره المستوردة..

ومرّةً أخرى يتجرّأ البعثيون الأوغاد في انتهاك حرمة المرجعية الدينية؛ حيث أقدموا على اعتقال السيد محمد باقر الحكيم، ليُصدَر بشأنه حكمٌ بالسجن المؤبّد من دون محاكمة ولو صورية..

وهكذا قدم المجتمع العراقي ثمانية من شبّانه ورجاله وأبنائه قرابين على طريق الكرامة والحرية.. وهم كلّ من: يوسف ستار الأسـديّ، ومحمد سعيد البلاغيّ، وناجح محمد كريم، وصاحب رحيم أبو گلل، والحاج عباس هادي أبو عجينة، وكامل ناجي مالو، وغازي جودي خويّر. أمّا الشابّ السيد عبد الوهاب الطالقانيّ، فاستشهد تحت التعذيب، وجاسم صادق الإيرواني، فقد توارى عن الأنظار وصدَر الحُكم بشأنه غيابياً! ثمّ أُلقي القبض عليه بعد مدّة، واقتيد إلى بغداد، فحوكم، وأُعدِم سنة (١٩٧٩م).

نجحت سلطات البعث في قمْع المجتمع العراقي، وظهرت صورةُ البعث المجرم الذي لا يتردّد في سحْق معارضيه بقسوة، وكانت مشاعر الكراهية تترسّخ في العمق الاجتماعي، وبدأت أجهزة الإعلام تصوِّر الانتماء الدينيّ والالتزام بالشعائر الحسينية؛ على أنها توجّهات رجعية وأنّ الدين يتعارض مع العِلم، وكان الشيوعيون الذين دخلوا مع البعث في تحالف (الجبهة الوطنية) ينشطون على صعيد الثقافة والفكر في ترسيخ مقولة ماركس (الدين أفيون الشعوب).

وهكذا مرّت محطّات السنين، كان فيها جمال يزداد وعياً ويزداد نضجاً؛

لتتبلور شخصيته القوية روحياً وأخلاقياً وفكرياً، يحمل هموم التغيير الثقافيّ والاجتماعيّ، وتشرق في ضميره الكلمات المقدّسة: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

كان اهتمام صباح يزداد، وكانت لقاءاته مع جمال تتكثّف، فقد رأى فيه الشابَّ الرساليّ الذي يكاد يذوب في غايات عليا، وكانت مساحة الأنا في داخله تتضاءل، مُرهف الحسّ، يتعاطف مع آلام الآخرين.. إنه لا ينسى دموعه عندما حدّثه عن اعتقال الشابّ (س.ع) بعد حوالي أسبوعين من (حوادث الأربعين) وتعرّضه للتعذيب بالكهرباء.. كان (النقيب فيصل) ذلك الذئب الكاسر لا يتردّد في تقطيع أوصاله لانتزاع اعترافٍ حول علاقته بـ (محمد باقر الصدر). أراد صباح أن يعدّه للمستقبَل، فالمواجهة مع (البعث) غداً ستكون رهيبةً ومصيرية ولن يصمد فيها سوى الرجال الصادقون. لاحظَ صباح أنّ (البطل) قد وُلد في أعماق جمال، لذلك قرّر أن يفاتحه بمسألة التنظيم.

يا إخوتي!

لا تسألوا إلى متى نسير في الهجير.. يا إخوتي لا تسألوا عن المصير!

فموعد الثوار عند مرقد الحسين..

عشر سنوات.. العراق يتقدم!!

أطلّ تموز وزادت شمسُه لهباً، وبدأت أجهزة دعاية حزب البعث تطبّل وتزمّر لـ (التقدم) الكبير الذي حققته حكومة الحزب والثورة، وظهرت اللّافتات السخيفة تغطي الشوارع ومعها صوَر الثنائي (البكر وصدام) والشعارات الفارغة في كلّ مكان:

---

١. الرعد: ١١

(عشر سنوات العامل يتقدم).. (عشر سنوات الطالب يتقدم).. (الطالب الجيد بعثيّ وإن لَم ينتمِ) (العامل الجيد بعثيّ وإن لَم ينتمِ) (الموظَّف الجيد..)

أطلّ شهر محرم عام ١٩٧٨م كعادته حزيناً، ولكنّه بدا في هذا العام مثقلاً بحزن الخريف.. رياح كانون الأول تنوح وهي تجوس خلال الأزقة في مدينة الفقراء مدينة الثورة..

خريف ١٩٧٨م مترع بحزن محرم، خاصة وأنّ حكومة البعث قد تقمّصت حُكْم يزيد، وقد بدا واضحاً جداً أنّ حكام البعث ينظُرون للإمام الحسين على أنّه الخطَر الأكبر الذي يهدِّد وجودهم، لذلك يتعيّن عليهم القضاء على جميع الطقوس الكربلائية.

في مطلع الخريف تداولَت الإذاعات العالمية خبرَ اختفاء الإمام موسى الصدر ورفيقيه في ليبيا؛ وكان السيد موسى الصدر قد تلقّى دعوةً من العقيد معمّر القذافيّ لزيارة ليبيا والمشارَكة في احتفالات الفاتح من سبتمبر؛ وكان السفير الليبيّ في بيروت هو من أرسَل إليه بطاقة الدعوة وتذكرة الطائرة..

وفي ٢٥ آب غادر الإمام الصدر لبنان مع رفيقيه الشيخ محمد يعقوب عضو المجلس الشيعي الأعلى، وعباس بدر الدين صاحب وكالة أخبار لبنان؛ فأصبَح المسكين في خبر كان!

وتوجّهَت أصابع الاتهام إلى الرئيس القذافيّ؛ وصدَر بيانٌ رسميّ من طرابلس يؤكّد أنّ السيد الصدر غادَر ليبيا إلى إيطاليا..!! على متن طائرة إيطالية، في رحلةٍ تحمل رقم ٨٨١؛ وقد أبلغ الانتربول الدوليّ حكومةَ لبنان بأنّ أسماء السيد ورفيقيه موجودة في قائمة المسافرين؛ كان جمال يتابع من خلال راديو (مونت كارلو) تفاصيل وتطورات اختفاء الإمام الصدر، وتزامنَت تطورات هذا الحادث مع بدء غليان الثورة في إيران.. وعزم الإمام الخمينيّ على مغادرة العراق إلى

الكويت؛ حيث وصَل الحدود العراقية الكويتية بعد اعتذار لبنان عن استقباله؛ ولمْ تسمح له الكويت بالدخول إلى أراضيها. وعندما سُئل الإمام عن موقفه إذا امتنعَت دول العالم عن منحه الإقامة؛ قال: سأبقى أنتقل من مطارٍ إلى مطار وأقود الثورة لإسقاط الشاه.

عاد الإمام الخمينيّ إلى بغداد بعد حصول نجْله السيد أحمد على تأشيرة زيارة إلى فرنسا؛ حيث وصل باريس في ٦ تشرين الأول ١٩٧٨م، وعندما سأله الدكتور صادق الطباطبائي عن سبب اختياره فرنسا، قال الإمام:

- لو كان خالك موجوداً في لبنان لما تشردنا هكذا!

جيل الملائكة

هؤلاء الشباب الذين وُلدوا في (٥٧ و٥٨ و١٩٥٩م) في بغداد والبصرة والناصرية والعمارة و.. قُدِّر لهم أن يعيشوا محنةً هي أقسى مِحن التاريخ، في أرض لمْ تعرف طعم الاستقرار.. هؤلاء الشباب ولدوا لتتبلور شخصيتهم الإنسانية في ظلّ أحلامٍ عريضة وتطلّعات كبرى؛ لقد سمَت بهم الأفكار الإنسانية لتعْبر كُلّ الحدود والاعتبارات الجغرافية والقومية، ولم تعد تحدّهم حدود؛ إنهم يشعرون بالانتماء لكُلّ الإنسانية جمعاء، وقد حصل هذا عندما أدركوا أنّ الإسلام بنسخته الأصيلة إنما هو التفسير الأرقى للإنسانية.. إسلام محمّدٍ وعليٍّ والحسين، تتوارثه الأجيال ليتمثّل اليوم في الإمام الخمينيّ في إيران، والسيد محمد باقر الصدر في العراق، والإمام موسى الصدر في لبنان..

أجل؛ لقد ظهَر جيلُ الملائكة، فكان مِن المُحتَّم أن تتجمّع إرهاصات المواجهة الحاسمة ضدّ شياطين حزب البعث، الذين تمكنوا من السيطرة على أرض العراق والتحكّم بمصير الشعب.

في شهر رمضان من هذا العام، أمضى جمال معظم لياليه مع صباح في

حواراتٍ منوّعة، وكان جمال يسجّل أحياناً بعضَ ما يعجبه. تحدّث صباح عن مقوّمات الشخصية الرسالية التي من أهمّها أنها تنطلق من نقطة ارتكازٍ تستند إلى خلفيةٍ ثقافية أصيلة تفضي بالإنسان إلى السير الثابت على طريق الهدف، وأنّ قضية الله والإنسان هي قضية المبدأ والجماهير، وهي القضية التي تشغل فكْر الإنسان المؤمن، والتي من أجْلها يترك كلٌّ قضاياه واهتماماته الشخصية (ويتخلّى من الهموم إلّا همّاً واحـداً)[١]، ولأنه يفكر بهذه الطريقة، فإنّ وعْيه يتنامى لينطلق في تفكيره إلى مجالات أبْعد من المجال الذاتيّ (وخرَج من صفة العمى)[٢].

ومن هتافاته أنّه يرفض مسايرة الواقع الاجتماعي الفاسد الذي لا ينفك يجرّه إلى سلوك خاطئ (ومشاركة أهل الهوى)[٣].

ولأنه يفكّر بهذا المستوى، ويكون هاجسَه الأمة، فلا بدّ أنْ يكون أحدَ الروّاد في تحريرها؛ من خلال التأثير في الآخرين وحثّهم على تبنّي هذا النوع من التفكير (وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الرّدى)[٤]، وأنّ عملية التغيير تتطلّب وقتاً طويلاً، لذلك يجب على الإنسان الرساليّ أن يتحلّى بالصبر؛ لأن العمل الثقافيّ هو موسمٌ زراعيّ (ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه)[٥].

إنّ الشخصية المتوازنة للإنسان ينبغي أن ترتكز إلى ثلاث دعائم: الروح، والعقل، والأخلاق.. الروح من أجْل الارتباط مع الخالق والغيب بما يمتلكه من

١. نهج البلاغة، الخطبة (٨٧) في وصف المتقين.
٢. نهج البلاغة، الخطبة (٨٧) في وصف المتقين.
٣. نهج البلاغة، الخطبة (٨٧) في وصف المتقين.
٤. نهج البلاغة، الخطبة (٨٧) في وصف المتقين.
٥. نهج البلاغة، الخطبة (٥).

طاقةٍ روحية، والعقل للتواصل مع الطبيعة بما ينطوي عليه مِن مقدراتٍ عقلية، والأخلاق لتنظيم علاقاته الاجتماعية والتواصل مع أفراد المجتَمع الذي يعيش فيه..

اقترح جمال على صباح أن يتدارس معه كتاب اقتصادنا؛ وتقرَّر أن يكون بعد الإفطار بساعة..

كان جمال قد اقتنى كتاب (فلسفتنا) و(اقتصادنا) قبْل أن يتمّ منْعه في المكتبات.. وعلى مدى ليالي رمضان لاحظ جمال أنّ دفتره قد امتلأ بالملاحظات:

- (الدين هو الإطار العام لاقتصادنا)
- (إنّ الحريـة التـي طبعَـت الحضـارة الغربيـة بطابعهـا وهـي انعـدام الشـعور بالمسـؤولية الأخلاقيـة لـدى الفـرد الأوروبـي؛ كانـت أداةً لانفتـاح هـذا الإنسـان علـى مفهـوم الصـراع؛ لأنهـا جعلَـت كُلّ إنسـان ينطلـق دون أن يحـدّه شـيء سـوى ذلـك الشـخص الـذي يقـف فـي المقابـل كمحـدِّد لـه؛ فـكان كلّ فـرد يشـكِّل النفـي لحريـة الفـرد الآخـر..

وهكذا نشأت فكرة الصراع.. هذه الفكرة التي عبّرت عن نفْسها في الأفكار العلمية والفلسفية)

(فكرة الصراع من أجل البقاء كقانون طبيعي في الأحياء)

(الصراع الطبقيّ؛ هو صراعٌ حتميّ داخل المجتمع)

تساءل جمال؛ ماذا عن الصراع الذي حدَث في انتفاضة صفر؟! قال صباح: إنه صراع بين شعبٍ يتطلّع إلى الحياة الحرة الكريمة، وبين نظام مُستبدّ يريد أن يحوِّل المجتمع العراقي إلى قطيع من الأغنام!

إنّ مسيرة المشاة نحو كربلاء تعبّر عن تطلُّع المجتمع نحو حياةٍ حرة كريمة؛ لأنه لا معنى للحياة من دون الحرّية ومن دون الشعور بالكرامة.. هذه هي رسالة عاشوراء.. أجلْ لا معنى للحياة..

جمال يتوقّف عند بعض المَقاطع في كتاب «اقتصادنا» فيسجّلها؛ خاصة تلك التي تتضمّن إشارة إلى التجربة العظيمة بعد بدء التاريخ الهجري:

- (بالرغم من ابتعاد المسلمين عن روح تلك التجربة والقيادة بُعداً زمنياً امتد قروناً بعيدة، وبُعداً روحياً يقدّر بانخفاض مستوياتهم الفكرية والنفسية واعتيادهم على ألوان أخرى للحياة الاجتماعية والسياسية؛ بالرغم من ذلك كلّه فقد كان للتحديد الذاتيّ الذي وضَع الإسلام نواتَه في تجربته الكاملة للحياة دورُه الإيجابيّ الفعّال في ضمان أعمال البِرّ والخير..).
- (التوجّهات الإسلامية هي قوانين علمية تؤتي ثمارَها متى توافرت الشروط التي تفضيها هذه القوانين)
- (استطاعت أن تحدث هزّةً روحية كبيرة في نفسه، وتفجِّر في أعماقه الإحساس بالمسؤولية)
- (العلْم يكشف الحقيقة بدرجة ما.. وليس هو الذي يطورها)
- (العلم لا يستطيع حلَّ المشكلة الاجتماعية إنما ينبّه لها)
- (فالدين هو صاحب الدور الأساسي في حلّ المشكلة الاجتماعية عن طريق تجنيد الدافع الذاتيّ لحساب المصلحة العامة)
- (الإنسان هو القوة المحرِّكة للتاريخ)

في أعماقه كان يهتزّ لهذه المقولة ويستغرب عندما سمع مرة (أبا فاطمة) يردد مقولة ماركس: (تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام)!! و(الدين أفيون

الشعوب). لقد رأى كيف ينتفض الشعب في صفر ١٩٧٧م، بينما كان الشيوعيون يتملّقون النظام على أمل الحصول على بعض العظام وفتات الطعام!!

شعَر بالأسف أن تعيش ابنة خالته (فاطمة) في ظلِّ أبٍ شيوعيّ حتى النخاع، يجيد فقط فرْض آرائه ولا يسمع إلا صوتَه فقط! لقد صدق قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[1].

وانتبه جمال على صوت والدته تدعوه للإفطار، وقفز وجْه فاطمة الباسم ليكون المشهد الأخير في مسلسل تأمُّلاته..

حنانيك يا ربّ!

فاطمة مستغرقة في صلاةٍ هادئة، كما لو كانت جالسةً في زورق يطفو فوق بحيرةٍ رائقة.. غرفتها الصغيرة مفعمة بالصمت.. بين يديها كتابٌ صغير يحمل عنوان (الصحيفة السجادية)، عندما كانت تفتح هذا الكتاب تشعر أنها تفتح نافذةَ الروح المشرَّعة على أبواب السماء..

أتاحت لها ليالي رمضان أن ترى مشهد السماء المُرصّعة بملايين النجوم.. وقد أشرق القمر بدراً بهيّاً.. في سماءٍ كحلية. كانت فاطمة مستغرقة في تسبيح الخالق العظيم:

- سبحانك اللهم وحنانيك!

سبحانك اللهم وتعاليت

سبحانك اللهم والعزّ إزارُك

سبحانك اللهم والعظمة رداؤك

---

١. الأنعام: ٩٥

سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك

سبحانك مِن عظيم ما أعظمك!

سبحانك سُبِّحت في الأعلى..

تسمع وترى ما تحت الثرى

سبحانك أنت شاهِدُ كُلّ نجوى

سبحانك موضع كلّ شكوى

سبحانك حاضر كلّ ملأ

سبحانك عظيم الرجاء

سبحانك ترى ما في قعر الماء

سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار

سبحانك تعلم وزن السماوات

سبحانك تعلم وزن الأرضين

سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر

سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور

سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء

سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرة

سبحانك قدّوس قدّوس

سبحانك عجباً لمن عرفك كيف لا يخافك

سبحانك اللهم وبحمدك..

سبحان الله العليّ العظيم..

شعرَت فاطمة بقلبها يخشع في هدأة الليل وسكينته، وأنّ قلْبها ينبض بالحب..

كانت على وشك أن تغادر (الثانوية) لتضع قدميها في أروقة الجامعة.. لولا صخرة (الكيمياء).. أخفقَت في اجتياز الامتحان الوزاريّ، وتعيّن عليها أنْ تنجح في الدور الثاني.. استنجدَت أمُّها بابن أختها جمال.. لكن جمال يجد صعوبةً؛ لأنّ والدها قال له بوجهٍ متجهِّم وصوتٍ غليظ ألا يأتي إلى بيته بعد اليوم!

عندما أخبرته أمُّه، شعرَ بنبعٍ من الفرح يتدفّق في قلْبه، وترحّم على جابر بن حيان الكوفي مؤسِّس علم الكيمياء..

وهكذا قُدِّر لـ (جمال) أن يداوِم على الحضور في بيت (فاطمة) يومياً.. كانت تجلس في حضرَته كما يجلس المريد في حضرة شيخه، مرتديةً زيّها الجديد المفعم بالحشمة والوقار..

كانت تتلقى دروس الكيمياء بشوق، حتى أصبَح مِن أحَبّ الدروس إلى قلبها بعد أن كانت تنفر منه وتبغضه!

هكذا يفعل الحبّ في النفوس الطاهرة.. فاطمة لم تعُد كسابق عهدها.. لقد تغيّرت نظرتها للحياة.

كبُرت همومها.. تنظر إلى (بنت الهدى)، فترى في كلماتها أضواءً تنير لها طريق الحياة، عندما تستيقظ فجراً للصلاة كانت تصغي إلى زقزقة العصافير،

وإلى حفيف أوراق الشجر تتخلّله نسائم السَّحَر.. حقّاً ما تقوله هذه السيدة الوقور في «ذكريات على تلال مكة»:

(بدت خيوط الفجر المضيئة لتنذر بميلاد يومٍ جديد؛ واليوم يختلف تأثيره في حياة الإنسان مع اختلاف ما يضمّ بين ساعاته من عطاء، وما يحمل لمن يمدّ بهم أو يمدّ عليهم من فائدة ورواء).

ولهذا فقد يطول اليوم ويطول.. تبعاً لامتداد آثاره التي يتركها في حياة الإنسان.. وقد يكون قصيراً جداً ينتهي مع انتهاء ساعاته المحدودة. كانت فاطمة قد دوّنَت مقطعاً من «ذكريات على تلال مكة»، تقول فيه:

(وارتفعت بنا الطائرة بعد أن عقَدنا نيّة الإحرام ونحن لا نزال على أرض مطار بغداد، وردّدنا كلمات التلبية قائلات:

(لبَّيك اللهم لبَّيك.. لبَّيك لا شريك لك لبَّيك.. إنَّ الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك لبَّيك)

ورأينا الشمس تشرق علينا صافيةً نقية، تَهبُنا الدفء وتغمرُنا بالضياء! فاستغربنا ذلك وقد كانت الغيوم تُظلِّلنا قبل دقائق، وترشّنا بقطراتٍ متلاحقة من المطر! فهل أنّ في الإمكان أن يتغيّر الجو في مثل هذه السرعة؟!

وما أبعد البَون بين هذه الشمس الدافئة التي تشرق تحت سماءٍ نقية صافية.. وبين ذلك الضباب الذي كان يشمل جوانب أنظارنا قبل قليل!

حقّاً إنّه لأمرٌ عجيب! هذا التحوّل الطارئ على صفحات السماء، وهذا التبدّل الحادث في أعالي الأفق!

أوَلم نكن نتطلّع إلى السماء نبحث فيها وبين طبقات السحب التي تحجبها عن أثر الشمس؟!

أوَلم تختلط قطرات المطر مع دموع المودّعين، ويتجاوب أنين الريح مع زفرات المفارقين؟! فكيف حدث هذا يا ترى؟!

أهو استجابة لدعاء داعٍ ابتهَل إلى الله قائلاً: يا محوِّل الحول والأحوال حوِّل حالنا إلى أحسن حال؟! أم ماذا؟!

وأخيراً اكتشفنا الحقيقة، فعرفنا أنّ الطائرة قد ارتفعَت بنا فوق السحاب. إذًا؛ فنحْن الذين ارتفعنا عن السحاب وأمطاره، وليس السحاب هو ذلك الذي انكشف عنا بتحوّلٍ سريع؛ فما أحلى ذلك! وما أروع أن نكون محلِّقين بأجسامنا في فضاءٍ نقي وتحت شمسٍ صافية الضياء! تاركين وراءنا متاعبَ المطر ومصاعبه؛ وقد كشف لنا ذلك الموقف حقيقةً ما أكثر مَن يجهلها منا.. وهي.. أنّ الإنسان يتمكن من الارتفاع بروحه وفكْره عن سحب الريب وغيوم الجهل والانحراف.. نعم؛ يرتفع بروحه عنها ليستنقذها نقيةً طاهرة، دون أن تعلق بها شائبة أو يلوّثها درَنٌ من الأدران.. فهو يستطيع ذلك لو أراد؛ حتى لو عاش في أجواء مظلّلةٍ بالغيوم.. ثم توصَّلنا إلى حقيقة ثانية أيضاً.. وهي .. أنّ على الإنسان أن يسعى نحو مطْلع النور بأيّ ثمن، وأنَّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..

فما أحلى أن نحلّق بأنفسنا في سماءٍ نقية؛ كما حلّقنا بأجسامنا خلال رحْلتنا تلك؛ وما أروع أن نلتفت فنجِد ذاتنا وقد تنزّهَت عن الرذائل، وحلّقَت في سماء الكمال، تاركةً وراءها ويلات الانحراف، وآفات السقوط، كما تركنا وراءنا ونحن في الطائرة الأرض المغطّاة بالوحول، والآفاق الملبّدة بالغيوم..).

وجدت فاطمة في أعماقها كلمات شكرٍ لابن خالتها جمال، فكتبَت في ورقة صغيرة: «لقد أنرْت حياتي.. كنت ظامئةً وأنت أخذت بيدي إلى النَّبع.. كنت أعيش حالةً من الضياع.. لقد وجدْت نفْسي.. ورأيت الطريق..».

وفي لحظةٍ من لحظات السماء

وقد جلْجل الرعد، وبرقٌ أضاء

وذاب السحاب

اكتشفْت الطريق

طريق الصعاب

ودرب الذين تحدّوا الغياب

وأبصرْت عند انتهاء المدى

قوافلاً تسري خلال الزمان

ودرباً مضاء

ورأيت الأنبياء..

ظهرَ هلال محرّم حزينا في أفق مُثقلٍ بغيومٍ خريفية.. محرّم فصْل الحزن العراقيّ اقترن بفصل الخريف.. موسم الحنين.. الأوراق الصفر تتساقط على هَون.. السماء كانت تنثّ على هَون؛ فكأنها تبكي للمصاب..

اتفق جمال مع صباح على موعد السفر إلى كربلاء لزيارة سيد الشهداء في ذكرى عاشوراء..

كان قد مضى على وصول الإمام الخمينيّ إلى فرنسا ثلاثةُ أسابيع، وقد بدأ غليان الثورة في العديد من المدن الإيرانية الكبرى وفي طليعتها العاصمة طهران؛ وبدا واضحاً أنّ قطاعات واسعة جداً من الشعب العراقي وخاصة في مدينة الثورة (شرق بغداد) ومدن الجنوب تتابع تطورات الثورة الإيرانية باهتمام..

واكتسبَت إذاعة مونت كارلو شعبيةً واسعة.. كانت الجماهير المليونية تهتف باسم الإمام الخمينيّ والحرية والاستقلال، وتصرخ بالموت للشاه..

الحسين.. نشيد الملايين

في هذه الفترة؛ حيث سيطرَت أجواءٌ مشحونة بالخطر في سماء كربلاء، ظهرَ رجلٌ يرتدي الكوفية والعقال يُدعى (ياسين الرميثي)، ليقرأ بصوتٍ شجيّ وتحت سماء خريفيةٍ مثقلة بالغيوم تنثّ مطراً ناعماً كما لو أنها تبكي بحزن عميق.. أجل ظهرَ هذا الرجل يقرأ قصيدةً خالدة، سوف تصبح نشيداً لملايين المقهورين، وعلى مرّ الأجيال:

- (يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنّا..

لا صيحة عواطف هاي.. لا دعوى ومجرّد راي..

هذي من مبادئنا.. صحنا بيك آمنّا..)

- بتكويـن البشـر يـا حسـين.. متسـاوي النوعيّـة.. جسـمه ومحتـوى واضـح.. ومعـروف بتسـاويّه.. الشـي بـي خفـي ومجهـول.. نزعاتـه النفسـيّة.. وهـيّ بدورهـا تِكشـفه.. وتظهـر لـك مخافيّـه..

وإحنا بنفسك آمنّا.. من عرفناها قدسيّة..

بشخصيتك لمسنا أوصاف.. ما نوجدت بشخصيّة..

لمَسنا بيك أبو الأحرار.. عرفنا الموت حريّة.. لمسنا التضحية بشخصك.. عَرفنا الشرف تضحيّة.. لمسنا بيك أبي وما تلين.. عرفنا الذلّ عبوديّة.. لمسنا قسوة أعدائك.. عرفنا احنا فدائيّة..

عرفنا انظل بدين يزيد.. من إيد لقساوة الإيد.. قبلنا ولمّن اقبلنا.. صحنا بيك

آمنّا..

عن سابق علم يا حسين.. وعن تركيز بالفكرة.. حبّيناك وتبعناك.. ونتوقّع غصص مُرّة..

تربة كربلا تشهد.. إل مَن دمنا أصبحت حَمرة.. ويوم العاشر بعاشور.. هم يشهد مع الذكرى.. وكل طعنة رمح تشهد.. وكل سيف إل طبر طبرة.. كلها اتصيح آمنّا.. بمحبتك يابو العترة.. حقيقتنا وطبيعتنا.. كتبناها على الفطرة.. احنا.. وكل دما مهدور.. وكل طعنة وجرح ونحور.. بساحات الشرف كلنا.. صحنا بيك آمنّا..

.. مَر بينا إعله حبّك دور.. لا ينسى ولا يخفى.. من عدوانك الچانت.. بينة تريد تتشفّه.. علينا أفرضوا أحكام.. بلا رحمة ولا رأفة.. ثبتنا بثقة وبرهنّا.. للظالم رغم أنفه.. حتى من نجي نزورك.. على العادة المأتلفة.. يتحجّج علينا يريد.. يمنعنا بألف حجّة.. گال اللّي يزور حسين.. وله مهما يكن ظرفه.. عليه ميّة ذهب يدفع.. رسم زيارته يكلفه.. دفعنا وكل شخص منّا.. يشعر بعد ما وفّه.. شنهو الذهب شنهو المال.. اليحب يتوطّن إل حتفه.. رد گال اليزور حسين.. من ايده ينگطع چفّه.. انطينا چفوفنا بالحال.. وركضنا نزورك بلهفة.. عنّك ما منعنا الخوف.. گطعوا من إيدينا چفوف.. منّ الألم ما صحنا.. صحنا بيك آمنّا..

وارث الحسين

مثلما تلمع البروق في السماء.. مثلما تُجلجل الرعود في الفضاء، أشرق وجهُ روح الله الموسويّ الخمينيّ على شاشات التلفاز، وصدحت كلماته القوية من خلال الإذاعات العالمية:

- سأنتقل من مطارٍ إلى مطار وأقود الثورة لإسقاط الشاه! أجل.. أشرق وجه روح الله.. في زمنٍ يلفّه الضباب والدخان.. في زمن الشيطان.. في زمن رسَم الرعبُ ملامحه في المدن الخائفة..

العالـم مستسـلمٌ بيـن أنيـابٍ تنـزّ صديـداً.. فـي هـذا الزمـن البائـس.. تمخّضــت الأرض فأنجبَــت روح الله..

وجهٌ يحمل شارات الأنبياء.. وامتدادات السماء.. سيفاً وقرآناً.. صهيلاً مخزوناً من أرض كربلاء.. من لحظة عاشـوراء، وتشرق شمسٌ جديدة.. تغمر الدنيا بالدفء والنور والأمل، وترفع النّوق في الصحارى رؤوسَها.. هناك في الأفق البعيد قافلةٌ قادمة يقودها وارث الحسين..

السلام عليك يا روح الله!

أيها القادم إلينا من أعماق التاريخ والإنسان!

أيها المضمَّخ بعبير النبوّات! يا بشارة هذا العصر!

عندما أشرقْتَ على هذا العصر.. بدأ عصر الزوابع.. الغيوم المخزونة بالرعود تحتشد، فتشعل البروق، وتسيل أوديةٌ بقدر..

السلام عليك يا روح الله!

أيها القادم من رحم كربلاء.. جواداً ينبعث من أعماق رمال الصحراء.. صوتاً فيه أنغام الزّبور.. تراتيل التوراة.. بشارة الإنجيل.. وآيات القرآن العظيم..

السلام عليك يا روح الله!

أيها الروح الذي حطم أصنام الطغاة.. أيها القلب الذي أصبح نبعاً للحياة، وطريقاً للنجاة..

مذ رأيناك رأينا آية الله.. معجزات الأنبياء.. في قبضتك عصا موسى؛ تنسف سحْرَ الشياطين.. فأْس إبراهيم تهشم وجوهَ الآلهة المزيفة..

في عينيك بريقُ الحسين والجراح التي هزمَت سيوف القبائل..

باقة ورد أُقدّمها بين يديك.. وسلامٌ عليك.. كلّ شرائح المجتمع العراقي كانت تتابع باهتمامٍ وشوق وحُبّ تطورات أعظم ثورة شعبية في الربع الأخير من القرن العشرين.. كانت (پانوراما راديو مونت كارلو) تملأ آذان الملايين وقلوبهم وهي تغطّي ما يجري في شوارع كبريات المدن الإيرانية، وفي طليعتها العاصمة طهران!!

وعندما وصلت (فرح ديبا) زوجة الشاه إلى النجف، وقابلت السيد أبو القاسم الخوئيّ.. كانت الملايين تجوب الشوارع في إيران، وتهتف بسقوط الشاه.. جاءت لتنقذ العرش البهلويّ من السقوط وقد كان يهتز بقوة.. طلبت من السيد الخوئيّ أن يقوم بإقناع السيد الخمينيّ بالتفاوض مع حكومة الشاه!!

كان أوار الثورة الإسلامية يشتدّ لهيباً، وكانت الحوادث المثيرة تتلاحق ملحميّاً، ووقف العالم بأسره مدهوشاً ومأخوذاً بما يجري في إيران!!

وفي ركضة طويريج، في مدينة كربلاء المقدّسة، هتفت الحشود الغاضبة باسم الحسين، ودوّت شعارات تحمل زخم الثورة:

- هالله هالله حسين وينه.. والبعث جاير علينه
- ثوري ثوري يا إيران!

خلّي الشاه بالنيران

في يوم ٢٣ كانون الأول ١٩٧٨م، وجّه الإمام الخمينيّ نداءه لجميع المسيحيين في العالم، ودعاهم إلى الاحتجاج على حكوماتهم التي تساند حكم الشاه. في يوم ٢٤ كانون الأول؛ حكومة الفريق أزهاري تقتل عدداً من الطلبة، وتأمر بإغلاق جميع المدارس في طهران!

في ٢٥ كانون الأول؛ جماهير الشعب الإيرانيّ تحطِّم تماثيل الشاه في العديد

من المدن الإيرانية.

في ٢٦ كانون الأول؛ جنود الشاه يغتالون (نجاة إلهي) الأستاذ الجامعي في طهران!

في يوم ٢٧ كانون الأول؛ (شاهبور بختيار) يوافق على تشكيل حكومةٍ مدنية باسم الشاه.

وفي الأول من السّنة الميلادية الجديدة أعلن الشاه عزمَه على السفر خارج إيران للعلاج!

وتصاعدت وتيرة التظاهرات المليونية الهادرة؛ فاضطرّ الجنرال أزهاري والجنرال أويسي إلى الهروب ومغادرة إيران للعلاج أيضاً!!

في يوم ٦ كانون الثاني ١٩٧٩م؛ صرّح شاهبور بختيار قائلاً: أتطلّع إلى أن يشرّفنا الإمام الخمينيّ بالعودة إلى إيران!

وبعد أربعة أيام يعلِن: إننا ننوي أن يقوم الشاه بدورٍ مماثل لدور ملكة بريطانيا؛ يملُك ولا يحكُم!

وفي يوم ١٣ كانون الثاني؛ يعلن الإمام الخمينيّ تشكيلَ المجلس الثوريّ الإسلاميّ، والإدارة الأمريكية تدعو الجيش الإيرانيّ لمساندة حكومة بختيار..

في ١٥ كانون الثاني؛ الإمام الخمينيّ يعيّن أعضاء الحكومة الإسلامية.

في يوم ١٧ كانون الثاني؛ الصحافة الإيرانية تتحدّث عن قرب موعد عودة الإمام الخمينيّ إلى أرض الوطن بعد غياب دام ١٥ عاماً.

في ١٨ كانون الثاني؛ احتفالاتٌ واسعة برحيل الشاه عن البلاد.

السّماء تفتح أبوابها في المساء

في يوم ٢٤ كانون الثاني؛ الدبابات والمصفّحات تحاصر مطار (مهرآباد) الدوليّ.

في ٢٥ كانون الثاني حكومة بختيار تأمر بإغلاق جميع المطارات الإيرانية لمدة ثلاثة أيام.

في يوم ٢٩ كانون الثاني؛ الإمام الخمينيّ يعلن عدَم مشروعية نظام الشاه وجميع مؤسساته الحكومية؛ ولذلك يرفض استقبال الموظَّفين غير القانونيين!

في الأول من شباط؛ التلفزيون الإيرانيّ ينقل - وعلى الهواء مباشرة - مراسم استقبال زهاء ثمانية ملايين إنسان للإمام الخميني! الجماهير الإيرانية تصطفّ على جانبيّ طريقٍ يمتدّ إلى أكثر من ٢٣ كيلومتراً!! وبختيار يعلن أنه لم يأمر بالنقل الحيّ لوصول آية الله!

وعلى مدى عشرة أيام كان العالم يحبس أنفاسه! وأخيراً انطلق صوتٌ حماسيّ من القسم العربيّ لإذاعة طهران وفي منتصف النهار ليعلن في يوم ١١ شباط ١٩٧٩م نبأ انتصار الدم على السيف:

- هنا طهران! صوت الثورة الإسلامية في إيران.. وتتدفّق جماهير الشعب العراقيّ إلى الأزقّة والشوارع توزّع الحلوى، وتذرف دموع الفرح.. واهتزّت تشكيلات حزب البعث بشدّة!!
- وزير الدفاع الإسرائيليّ موشي دايان: ما حدث في إيران زلزالٌ سوف تصلنا هزّاته بعد قليل!
- الرئيس الفرنسيّ: ما حدث في إيران رصاصةٌ انطلقت من أعماق التاريخ لتستقرّ في قلب القرن العشرين!!
- السيد محمد باقر الصدر: لقد حقّق الإمام الخمينيّ حلْم الأنبياء.

كانت سلطات البعث تعيش حالةً من الرعب، فقد شعرَت بقوة الزلزال، أما

الشعب العراقي فقد أشرقَت في أفُقه شمسُ الأمل، وراح يتطلّع إلى غدٍ أفضل تشرق فيه شمس الإسلام.. شمس الحرية والكرامة الإنسانية، وتبدِّد وإلى الأبد ظلام البعث العفلقيّ.. أجل؛ لقد تبلور حلمٌ ملوَّن في وجدان المجتمع العراقي وخاصة جيل الشباب.. جيل الذين وُلدوا في الأعوام ١٩٥٣ - ١٩٥٩م وحتى ١٩٦١م.. حتى الأطفال حفظوا أناشيد الثورة وفي طليعتها:

- إيران.. إيران.. إيران.. خون ومرگ وعصيان! (دماء وموت وتمرّد)

بدأ نظام البعث يمارس سياسة النفاق.. تأييدٌ رسميّ خجول للثورة.. أما في داخل مراكزه الحزبية ومنظماته فقد شُنّت حملةٌ إعلامية واسعة، راحت تكيل الاتهامات الباطلة لقائد الثورة..

ولكن شمس الثورة الإسلامية كانت من السطوع بحيث لا يمكن لخفافيش حزب البعث المنحط التعتيم على أنوارها الباهرة..

أعلنَت إيران الإسلام أنها دولةُ مواجهةٍ ضدّ إسرائيل، وأنّ هذا الكيان الغاصب لأرض فلسطين لا يتمتّع بأيّ شكلٍ من أشكال الشرعية!

سقطَت ورقة التوت، وبدت عورة نظام البعث المنحطّ، الذي ملأ الدنيا ضجيجاً في الدفاع عن فلسطين والقضية الفلسطينية! فها هو الآن يناصب إيران الإسلام العداء؛ ويقوم بتوجيه سهام أحقاده إلى عدوٍّ وهميّ، بعيداً عن إسرائيل..

وفي ثكنات الجيش، وخاصة في منظومات الدفاع الجوي، تمّ إنزال ألواح تمييز الطائرات الإسرائيلية، لتُعلَّق مكانها ألواحٌ جديدة، تحت عنوان: (لوحة تمييز الطائرات الإيرانية)!!

وهكذا بدأت تتجمّع في الأفق نُذُر المحنة الكبرى التي ستعصف بواقع المجتمع العراقيّ..

وقد رافق ذلك قيام سلطات البعث بحملةٍ شعواء لإكراه تلاميذ المدارس الثانوية والمعاهد والجامعات والتضييق عليهم وإجبارهم على الانتماء لحزب البعث المجرم..

جاء (صباح) ذات يومٍ ربيعيّ من أيام نيسان، يحمل فتوى السيد محمد باقر الصدر بتحريم الانتماء إلى حزب البعث.. لقد بدأَت المواجهة المصيرية.. بين الإنسان الحُرّ وبين الطاغية.. قال (صباح): إنّ هذه الفتوى كانت مخاض تفكيرٍ طويل، ووُلدت بعد مشاورات امتدّت حتى مطلع الفجر!

وجاء في حيثيات الفتوى أنّ حزب البعث إنما تمّ تأسيسه لهدم الإسلام والقضاء عليه..

أضيفت هذه الفتوى الخطيرة إلى سجلّ الصدر في دهاليز (الأمن العام)؛ لأنها أكثر خطراً من خروج تظاهرة التأييد للثورة الإسلامية في إيران؛ وقد اكتشفت الدوائر الأمنية في النجف أنّ المتظاهرين كُلّهم مِن مقلدي السيد الصدر.

خنازير البعث

أقدم السيد محمد باقر الصدر على إصدار فتوى أخرى حرّم بموجبها العمل في حقول العزيزية لتربية الخنازير، وهي تتضمّن إدانةً واضحة لحزب البعث الذي ينتهك الشريعة الإسلامية؛ فيقوم وبكُلّ وقاحة بإنشاء حقولٍ لتربية الخنازير في بلدٍ مسلم عريق!! وهكذا بدأ غليان الثورة! في تلك الأيام قام (صدام) بزيارة لمدينة الثورة.. مدينة الفقراء والمقهورين، وألقى كلمةً في (الجماهير) واعداً إياها بمستقبَلٍ زاهر، ثم أشار إلى أنّ هذه المدينة تقع على بحرٍ من النفط. كان يريد من وراء هذه الإشارة أنّ (الحكومة) قد تقوم بترحيل السكان وتفكيك المدينة وتمزيقها بحجة استخراج النفط.. كان في الحقيقة يتوعّد ولا يَعِد!

كان يلوّح بإمكانية تهجير سكان هذه المدينة التي تُعدّ امتداداً لمدن الجنوب

وقراه المتناثرة بين النهرين.. فجأة علت هتافات الجماهير بصوتٍ واحد:

- الخايـن شـعبَه انگُـصّ إيـده.. الخايـن شـعبه.. انگـصّ إيـده.. فارتبـك الطاغيـة، وراح يلملـم شـتاته وينسـحب عائـداً مـن حيـث أتـى!

كان صباح يجتمع بجمال وكريم وهادي وعبد الأمير في فتراتٍ متقاربة جداً لمتابعة التطورات المتلاحقة.

المبرقع

أطلّ شهر نيسان، وأخذ البعثيون ينعقون ويصكّون الأسماع بأناشيد سخيفة تمجّد ذكرى تأسيس حزب البعث في السابع منه..

وانتشرَت في أثناء ذلك فتوى تحريم الصلاة خلْف المعمّم الذي لا يحمل وكالة من المرجعية في النجف الأشرف؛ وكان السيد قاسم المبرقَع قد قام ببناء مسجد في مدينة الثورة، وتمّ افتتاحه قبل انتصار الثورة الإسلامية.. وقد حضر حفل الافتتاح السيد محمد الصدر ممثّلاً للسيد محمد باقر الصدر..

في يوم ٤ نيسان توفّي شقيق السيد قاسم المبرقع، فنُظّم له تشييعٌ كبير، وانطلقت هتافات لا إله إلا الله.. الله أكبر.. كلمات تحمل في أعماقها صرخةَ الحرية.. وسرى الحماس في نفوس المشيّعين، وهي تعبّر من خلال الكلمات المقدسة عن غضبها وآلامها، واشتدّ الـحماس، وضجّت له سماء المدينة المقهورة..

إنها تحاول من خلال هذا التشييع أن تحطِّم الأغلال والقيود في هذا التشييع المهيب الذي مثّل تحدياً كبيراً لنظام البعث الهمجيّ وأجهِزته القمعية.. وأقيمت المجالس في أنحاءٍ عديدة من مدينة الثورة الباسلة؛ واستمرّت هذه المجالس سبعة أيام، وكانت صورة السيد محمد باقر الصدر تتصدّر بعض تلك

المجالس، وفي طليعتها المجلس الذي أقيم في القطاع ٤٨؛ حيث ينهض (جامع الإمام الباقر عليه السلام) كما لو كان قلعةً تتحدّى نظام البعث الغاشم. كان السيد قاسم المبرقع إمام الجامع ووكيل السيد محمد باقر الصدر، قد صعّد من نشاطه ومقارعته لهذا النظام الهمجيّ العميل.

وفي أربعينيّة السيد علي المبرقع، أُقيم مجلسٌ مهيب، حضره زهاء ثلاثين ألفاً من المشاركين؛ وكانت صورة السيد محمد باقر الصدر تتصدّر المجلس الكبير، وألقى السيد حسين الصدر نجل شقيق السيد محمد باقر الصدر كلمةً بالنيابة عن عمّه؛ وكان عريف المجلس الأربعينيّ أبو عاصم أحد أعضاء حزب الدعوة، فألقى كلمةً جريئة بدأها بقوله:

- (قل أعوذ بربّ الفلق، من شرّ البعث وعفلق)، وحاول البعثيون التشويش من خلال توجيه مكبّرات الصوت لتبثّ أناشيد البعث، وتفاقمَت الأوضاع؛ حيث شنّ البعثيون هجوماً مسلحاً، وقاموا بحملة اعتقالاتٍ واسعة طالت الشباب؛ الذين لاذ العشرات منهم بحرم المسجد، وعندما حاول البعثيون اقتحام حرم المسجد تصدّى لهم السيد محمد شاكر نجل السيد قاسم المبرقع، وتمكّن من ردّهم..

إن الحادي عشر من شهر مارس يومٌ لا يُنسى، تم اعتقال مئات الشباب!

البيت الدافئ

تمكنت فاطمة وبمساعدة جمال من اجتياز (امتحان الكيمياء) بنجاح وتحقيق حلمها بدخول الحياة الجامعية؛ وعندما بشّرها جمال باستلام شهادة تخرُّجه من معهد التكنلوجيا تضاعفت فرحتُها، وأطرقت حياءً عندما قال:

- سأزورك هذه المرة مع والدي ووالدتي..

إنها على بعد خطوة من تحقيق سعادتها الأبدية.. إنّ حلمَها أن تسير مع جمال في طريق واحد سيتحقق بعد أيام معدودة، وسوف تطوي طريق الحياة مع رفيق دربٍ يضمر لها الحبّ والوفاء، ويأخذ بيدها نحو حياةٍ دافئة..

زفّت فاطمة الخبر السعيد لوالدتها، فأشرقت الابتسامة في وجهها.. كانت تشعر بالسعادة والرّضى وهي ترى ابنتها سعيدةً تنظر إلى المستقبل بأمل؛ فابن أختها شابٌّ حلو المعشر يتحدّث بهدوء، وفي قلبه يشعّ الإيمان والصفاء وشعور بالسلام. إنّ زوْجها وبالرغم من ثرائه وسخائه أيضاً؛ إذ يوفر لها ما تريد، إلا أنها كانت تفتقد معه الحبّ الذي يُشعِر المرأة بالسعادة، لهذا كانت تغبط في أعماقها أختَها؛ وها هي الآن تغبط ابنتها التي ستعيش في ظلال هذه الأسرة الشريفة..

كان يوم الثلاثاء عيداً بالنسبة لفاطمة، والفرح يسود أجواء البيت، فقد اجتازت الامتحان بنجاح، وجمال تخرّج من المعهد، وستأتي أسرتُه لطلب يدها بعد ساعاتٍ معدودة.. الجميع سعداء باستثناء والدها الذي كان يحاول جاهداً إخفاء امتعاضه.. لقد تحدّث مع ابنته كثيراً عن هؤلاء الرجعيين.. الذين لا يعرفون سوى الركوع والسجود.. لكنه كان يصطدم بصخرة اسمها جمال، ذاك الذي تحبّه ابنته حبّاً كبيراً يسمو على كلّ شيء.. إنها تعيش السعادة منذ الآن.. لقد شعر بالهزيمة عندما لاحظ في أيدي بناته كتاب تعليم الصلاة..

قالت فاطمة بحنان:

- يا أبي أنت لا تستطيع أن تتصوّر مدى سعادتي وأنا أقف بين يدي ربّي.. أناجيه وأبثّه همومي.. لا تستطيع أن تتصوّر مدى سعادتي وأنا أتلو آيات القرآن في منتصف الليل؛ فتشرق الشمس بهيّة، ويتألّق القمر منيراً، في سماء حياتي، وتومض النجوم كقلوب العاشقين..

لقد أصبح جمال رمزاً لجمال الحياة وجمال الوجود ورفيق درب، يأخذ بيدي

نحو حياةٍ حقيقية مفعمة بالصفاء والسلام..

- ولكـن يـا فاطمـة أنـت تعيشـين فـي زمـن (البعـث).. هـذا الحـزب اللعيـن لـن يتهـاون معـك.. لـن يغـضّ الطـرف عنـك.. لـن..
- أعرف ذلك؛ فهذه سيدتي تقول:

أنا كنت أعلَمُ أنّ دربَ الحقّ بالأشواك حافلْ

خالٍ من الريحان ينشرُ عطرَه بين الجداولْ

لكنّني أقدمتُ أقفو السَّيرَ في خَطْوِ الأوائلْ

فالحقّ يُخلَّد في الوجود وكُلّ ما يعدوه زائلْ

كانت الشمس تكاد تلامِس سطوح المنازل المصطفّة على امتداد شارع فلسطين.. توقّفت سيارة «التاكسي» أمام بيتٍ كبير تمتدّ جبهة جداره عشرين متراً، وقد نبتت شجيرات ورد خضراء، تفتّحت بين أغصانها المتشابكة ورود الجوري الحمراء والبيضاء.. الجدار يرتفع متراً ونصف متر يمكن لمن يجتاز به أن يرى حديقة البيت الغنّاء..

المنازل في هذا الحيّ الراقي تختلف تماماً عن بيوت مدينة الثورة. بعد لحظاتٍ مِن دقّ الجرس ظهرَ أبو فاطمة بوجهه الأسمر وملابسه الأنيقة.. كان بانتظار قدوم (أبو جمال) وأسْرته، وقد بدا مستسلماً وهو يصافح أبا جمال وجمال، ويرحِّب بأُمّ جمال ويتقدّمهم إلى غرفة الاستقبال.. أُمّ فاطمة كانت ترافقه على خطوتين..

جاءت فاطمة للترحيب وقد ارتدَت العباءة الجنوبية السوداء أما أخواتها فقد كُنّ يرتدين (البناطيل)، ويسترن شعورهنّ بغطاء ملوّن..

كان منظر والد جمال بعقاله وكوفيته الخضراء مهيباً وقد جلس بوقار..

نفذت هيبته في نفوس مستقبليه بما في ذلك والد فاطمة..

افتتح أبو جمال حديثه بالآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، والحديث الشريف: (الزواج سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي).

كان أبو فاطمة يبتسم أو يتظاهر بذلك؛ لأنّ ذهنه مليء بالفلسفة الماركسية والديالكتيك.. ذهنه مغلقٌ على الأفكار الشيوعية. حاول جمال أن يضع في طريقه كتاب (فلسفتنا)، لكنه ردّه واستنكف أن يأخذ كتاباً من شابٍ يافع لم يبلغ العشرين!! كان ذلك قبل ثلاث سنوات. كان ينظر إلى المعمّمين على أنهم رجعيّون وأناس يستغلّون الفقراء؛ يعني طبقة مستغِلّة تُكوّن ثرواتها على خداع طبقة الكادحين.. لكنه انصدم وبشدّة عندما انتصرت ثورةٌ شعبية بقيادة رجل دين.. وظهرَت شخصية الإمام الخمينيّ ليطيح بعرش الطاووس العميل للإمبريالية الأمريكية!!

عقلُه وطريقة تفكيره لا تستوعب ما يجري في إيران.. رفاقه الشيوعيون في إيران (حزب توده) يحملون صور ستالين ولينين وماركس إلى جانب صور الإمام الخمينيّ..

ابتسم أبو فاطمة وظهرت البشاشة على وجهه وهو يردّد عبارات الترحيب بالضيوف.. وقال بصراحة لا تخلو من التودّد إنّ مراسم الخطوبة ستكون روتينية؛ لأن الأختين قد أنجزتا (التفصيل) و(اللبس) حتى موعد الذهاب إلى (الكاظمية) لعقد القران الشرعيّ.. وسكت لحظاتٍ ونظر إلى ابنته وهو يستطرد قائلاً: فاطمة أمانة عندكم.. وجاء صوت أُمّ جمال: أخلِّيها بعيوني..

بالنسبة للمهر فاطمة تُصرّ على أن يكون مهرها رمزياً (مصحف)، ونظر

---

١. الروم: ٢١

إلى فاطمة مستفسراً عن الكتاب الآخر الذي لم يسمع به طَوال حياته فقالت أُمّ فاطمة: (الصحيفة السجادية).. واسترسَل أبو فاطمة ربما ساخراً: و(سُبحة) و(سجادة صلاة)..

توقّف عن الاسترسال بعد أن شعر بنظرات (أبو جمال) النافذة، وعلت الزغردات وشربَ الجميع عصير الليمون. وكانت أُمّ جمال قد أعدّت (الكليجة) بنفْسها خصيصاً، فأقبل عليها الجميع يتلذّذون بقضمها على مهل.. حتى أبو فاطمة بدت على وجهة ملامح الارتياح وهو ينظر إلى زوجته ما إذا كانت تجيد صنعَها مثْل أختها أُمّ جمال؟!

وهكذا تمّت مراسم الخطوبة بكلّ يُسرٍ ودون أي تكلُّف. وفي يوم الخميس عند الأصيل، كانت كفّا جمال وفاطمة تتشابكان في عناق الأصابع، وقد بدت على وجهيهما ملامح حبٍّ حالم عميق، يحتضن بدفء قلبين عاشقين يتطلّعان بأملٍ إلى غدٍ مشرق، ومستقبلٍ واعد..

وقفا يراقبان حمام الزاجل، يلتقط في أمان حبّات القمح التي ينثرها الزائرون.. كان المشهد مُفعماً بالصمت والسكينة.. وكانت تلاوةٌ قرآنية تنساب من المآذن الشمّاء:

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1].. صدق الله العليّ العظيم..

وارتفع صوتٌ سماويّ مجلجلاً في الفضاء اللانهائيّ:

- الله أكبر.. الله أكبر..

---

١. ص: ٤٩-٥٣

اصطفّ المصلّون خلف السيد حسين الصدر لأداء صلاة المغرب.. اتفق جمال مع فاطمة أن يكون اللقاء في نفس المكان، حيث يُنثر الحَبّ للحمام.

شرق القناة

شعرَت فاطمة وهي تعبر جسر القناة أنها تنتقل إلى عالمٍ آخر.. لقد عبرَت هذا الجسر الصغير مرّات ومرّات.. لكن هذه المرّة تختلف تماماً.. إنها تنتقل إلى بيت الزوجية في بيت خالتها المؤلَّف من طابقين، حيث ستسكُن في الطابق العلويّ. وهكذا انتقلت فاطمة إلى عالَمها الجديد كما الفراشات تنشد الربيع.. انتقلت من قصرٍ كبير مكتظّ بالأشواك إلى بيتٍ صغير مفعمٍ بالزهور والورود والرياحين.. فاطمة تشعر أنها تنتمي إلى هذه المدينة؛ مدينة الفقراء الطيبين؛ مدينة الكادحين.. مدينة الوجوه السمر المعروقة..

تحوّلت الغرفة الصغيرة في الطابق العلويّ في ذلك البيت الكائن في حيّ الأكراد إلى عشٍّ دافئ.. تتطلّع فاطمة من نوافذه إلى غدٍ مشرق واعد..

هذا البيت الصغير في هذا الحيّ الفقير سيشهد حياةً زوجية مفعمة بالحبّ والحنان..

مرّت الأسابيع الأولى من حياتها الجديدة كنسائم الربيع المفعمة بشذى الرياحين.. كانت تزداد حبّاً لزوجها ورفيق رحلتها في دروب الحياة..

لقد شاء القدر أن يلتقي جمال وفاطمة وأن يعيشا معاً حياةً مشتركة، وقد تَفجّر نبعُ سعادتهما في وقت بدأ فيه مسلسل المحن المريرة يعصف بالمجتمع العراقيّ. كان نظام البعث يخطّط لتوجيه ضربةٍ قاضية للحركة الإسلامية..

لم يكن جمال قد أخفى على فاطمة انتماءَه، والأخطار التي قد يواجهها في المستقبل.. إنّ مواجهة نظام البعث وهو في أوج جبروته ليس بالأمر الهيّن..

عندما سألَته هل تتوقّع الانتصار في هكذا معركة غير متكافئة؟!

قال جمال: لا؛ ولكننا من الجيل الذي سيكون هو مَن رسمَ الدرب ومهّد الطريق.. هكذا قال السيد الصدر..

البعثيون يريدون مسخ هويتنا وإذلالنا.. وموقفهم واضح من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.. يحاربون الشعائر الحسينية دون حياء.. وإلا هل يوجد نظام على وجه الأرض يرعِب مواكب الحسين بطائرات حربية مقاتلة، مهدداً بقصف الناس العزّل؟!..

منعوا كتُب السيد الصدر.. ويعتقلون من يجدون عنده كتاب (الصحيفة السجادية)، وهو كتاب دعاء!!

أوصته فاطمة وهي تودّعه عند باب الغرفة ألّا يتكلّم في هكذا أمور أمام الجنود.. كان ذلك أول أيامه في أداء الخدمة العسكرية في معسكر التاجي في شمال بغداد..

عراق اليوم يبحث عن حسين

مرّت أسابيع لمْ يجتمع خلالها صباح بجمال وهادي، ثم التأم الشمل في المتنزّه المجاور لمدرسة (ذي قار) الابتدائية.. كانوا يحملون معهم ألبسةً رياضية وكرة قدمٍ للتغطية..

كان صباح قد بدا مهموماً وهو يتحدّث عن المستقبَل الغامض الذي ينتظر العراق؛ فقد كثّف أصحاب (العيون الزجاجية) حضورَهم في المساجد، وكان بعضهم يواظب على الحضور في المسجد قبْل الصلاة، ويتّخذ مكانه في الصفّ الأول. تساءل جمال عمّا يقلِقه، فقد بدا صباح مهموماً جداً، وأنّ هناك سبباً آخراً غير مراقبة (الأمن) للشباب في مساجد المدينة وخاصة في (جامع سيد الرُّسل)،

و(جامع الإمام محمد الباقر)، و(جامع الإمام الحسن العسكري)، و(جامع زينب الكبرى)، و(جامع المحسن)، و(جامع زين العابدين)، التي أضحت قلاعاً للثورة ضد نظام العفالقة.. تحدّث صباح بمرارة عن القسم العربيّ في إذاعة طهران (صوت الثورة الإسلامية في إيران).. الذين يوجهون الخطاب الإعلامي للشعب العراقي؛ إنهم لا يدركون ماذا يفعلون!! تهريجٌ إعلاميّ، إنّ (برنامج عراق اليوم يبحث عن حسين) يتضمّن تحريضاً للنظام ضد السيد محمد باقر الصدر.. ربما يحاول هؤلاء استغلال ذلك.. استغلال دماء السيد لتأجيج الأوضاع ضدّ نظام البعث! لقد سمع من أحد المقرّبين من السيد أنّ إذاعة طهران نسبَت إليه كلاماً لم يقله أبداً!!

إنها وبدل أن تقوم بفضح النظام والتركيز على عفلقيته وارتباطه بالدوائر الماسونية، فإنها تركّز على شخصية السيد محمد باقر الصدر كما لو أنها تقوم بالتحريض عليه، ومن ثم استغلال دماء الضحايا!

سأل جمال: هل من جديد؟ قال صباح وهو يركّز على ما يقول: نعم؛ سوف تقام احتفالاتٌ كبرى بمناسبة ذكرى ميلاد الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في عددٍ من مساجد المدينة.. سوف تكون مهرجانات خطابية لكشر حاجز الخوف، وتحطيم هيبة النظام البعثيّ.. سوف تكون ليلة ١٣ رجب أطول ليلةٍ في تاريخ هذه المدينة الأبيّة.. هذه المدينة التي تعيش مخاض ميلادٍ جديد..

تحدّث صباح عن وصول تعليمات حول فكرة توجُّه وفودٍ شعبية إلى النجف الأشرف لمبايعة السيد محمد باقر الصدر، وتعزيز جبهته في مواجهة النظام حتى لا ينفرد به البعثيون. لقد أضحى السيد رمزاً للثورة والتحدّي، ولذا تجب مساندته بقوةٍ في هذه المرحلة الحساسة؛ حتى لو تطلّب الظرف الدخول في مواجهةٍ عسكرية!!

التفت صباح إلى جمال واقترح عليه الانسحاب من الخدمة العسكرية، والاستعداد للمرحلة القادمة! لكن جمال اعتذر؛ لأنه أولاً؛ لا يملك مستمسكات

مزوَّرة تحميه، وثانياً؛ أنّ الوقت ما يزال مبكراً.. أطرق صباح برأسِه ولم يقل شيئاً.. وانفضّ الاجتماع.. كان صباح يشدّ على أيدي رفاق الدرب بقوة، وقلبُه ينبئ ألّا لقاء بعد اليوم!

براكين الغضب

فوجئ الكثيرون بالقشم العربيّ في إذاعة طهران يذيع ما وصفَه بنصّ برقية الإمام الخمينيّ إلى سماحة السيد محمد باقر الصدر:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الحاج السيد محمد باقر الصدر دامت بركاته.

علمنا أنّ سماحتكم تعتزمون مغادرة العراق بسبب بعض الحوادث.. إنّني لا أرى مِن الصالح مغادرتكم مدينة النجف الأشرف مركز العلوم الإسلامية، وإنّني قلِقٌ من هذا الأمر، آمل إن شاء الله إزالة قلق سماحتكم.

والسلام عليكم ورحمة الله

روح الله الموسويّ الخمينيّ

وأثارت البرقية جدلاً في أوساط الحركة الإسلامية!! ترى هل يعتزم السيد مغادرة العراق حقّاً؟! ومَن الذي أوصل هذا الخبر إلى الإمام؟! لا أحد يدري!

بدأَت الاستعدادات المشحونة بالحماس لإقامة احتفالاتٍ كبرى ومهرجاناتٍ خطابية في المساجد الكبرى.. وفي نفس الوقت التحضير لإرسال وفد مدينة الثورة لمبايعة السيد الصدر، وتطلب منه عدم مغادرة العراق.

ستنطلق الثورة من الثورة

كانت منظمات حزب البعث في مدينة الثورة تمثّل غدداً سرطانية تفتِك في كيان هذه المدينة، وكانت قيادات هذا الحزب المنحطّ تعتمد معايير أخلاقية في إسناد المسؤوليات؛ حيث يتبوّأ الأكثر سقوطاً الموقعَ الأعلى، ولهذا سرعان ما أثمرت هذه المعايير في ظهور كائناتٍ متوحّشة همجيّة غبيّة، لا تعرف سوى التنكيل بالجيران والمعارف والأقارب.

البعثيّ كائنٌ منحطّ لا يعرف سوى كتابة التقارير ضدّ الجيران وضدّ الشخصيات المحترَمة اجتماعياً، لقد منَحهم البعث فرصة الاستمتاع بالسلطة والنفوذ، وقد أُتخِمَت مديريات الأمن بمثل هذه العناصر التي لا تعرف معنىً للنُّبل والشهامة والفضيلة والشجاعة والإباء.. ومع ذلك وفي هكذا ظروف عصيبة ظهَر جيلٌ من الشباب المثقّف الواعي الملتزم دينياً..

كان جمال الموسويّ، وصباح علي طابو، وقاسم كريدي، وزيدان، وباقر درويش، وهادي عزيم، ونسيم هاشم، وخلف مساعد، وكريم جمعة، ومهدي زاير إسماعيل، وعبد الأمير محمد، وكريم عبد سلمان، وستار سكوندي، وحكيم عبد الزهرة، و.. نخبةَ الشباب..

استكمَل شباب مدينة الثورة تنظيم وفْدهم الكبير الذي كان الأكبر ضخامة..

في حدود الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة مطلع حزيران تحرّكت سيارات الوفود نحو مدينة النجف الأشرف؛ من قرب البريد في منطقة الداخل انطلقت سيارة، وسيارةٌ أخرى من أمام جامع الإمام الحسن عليه السلام، وكذلك من أمام جامع العباس، ومن أمام جامع السيد المبرقع انطلقت سيارتان، خمس سيارات كلّ واحدة تحمل ٢٥ شخصاً مِن نخبة الشباب المثقّف ومن الرجال الأشدّاء، وفي الطليعة السيد قاسم المبرقع.. هذا السيد الوقور الذي يبدو كاللّيث في شجاعته

وبسالته، وكان ابنه السيد محمد شاكر على سرّ أبيه.. وفي زعامة هذا الوفد السيد عباس الشوكيّ الذي لا تفارق الابتسامة محيّاه في أحلك الظروف، والحاج محمد الدراجيّ، والحاج أبو ياسر، والسيد أبو عاصم الموسويّ، اتفق الجميع على اللقاء في جامع الهنديّ..

في (البيّاع)، نصب البعثيون نقطة تفتيشٍ تسأل عن وجهة السيارة، فكان الجواب: النجف لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام..

وكان رجال الأمن يتفحّصون الهويات، فسألوا أحد السادة في الستين من عمره عن هويته، فأشار إلى شيبته قائلاً:

- هذي هويتي!

تجمَّع الوافدون، وكان عددهم أكثر من مئة وعشرين، في مسجد الهنديّ، يترقّبون وصول السيد قاسم المبرقع، فوصل وبرفقته عبد الواحد كشاش، وكان السيد المبرقع قد حدّد موعد اللقاء.. لذلك ما إن وصل حتى طلب من الوافدين النهوض لزيارة السيد الصدر.. انتظمَت مسيرةٌ هادئة تمشي بوقار باتجاه محلّة العمارة، حيث يقع بيت السيد، وكانت كاميرات عناصر الأمن تصوّر الوافدين وهم يهتفون:

- عاش عاش عاش الصدر، والدين دوماً منتصر

يا إمام الدين يا قائدنا.. يا فقيه العصر يا سيدنا

قد أتينا لنجدِّد عهدنا..

قد أبينا العيش إذلالاً وكفرا.. وابتغينا الدين منهاجاً وفكرا

يا فقيه العصر يا سيدنا.. يا أبا جعفر يا قائدنا

نحن جند لك دوماً أمناء..

وعندما دخلوا على السيد، قال أبو عاصم الموسويّ:

- أيها الصدر الكريم؛ لن نقول لك كما قال أصحاب موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون﴾؛ فوالله نحن رهن إشارتكم..

فتبسّم السيد الصدر وقال:

- أنتم إخوتي وأبنائي، ولن أبرح مكاني حتى أجاهد معكم حتى النَّفَس الأخير. وأردف وهو يتأمّل في وجوه الشباب الثوريّ:

- ستنطلق الثورة من الثورة!

وبعد مغادرة المكان، اتجه الوافدون إلى مسجد الخضراء لأداء صلاة الظهر.. كان رجال الأمن يتابعون حركتهم. ولمّا قُضيت الصلاة وخرجوا، أُلقِي القبض على شابّين من جامع الشيخ بدر..

كانت سيارات الوفد متوقّفةً في نهاية شارع الطوسي عند مدخل مقبرة وادي السلام الكبرى.. وكان رجال الأمن يسجّلون أرقام السيارات، ويتصلون بنقاط التفتيش في طريق عودتها، وفي نقاط التفتيش يتم استجواب الركاب وتسجيل أسمائهم وعناوينهم وأماكن عملهم، وقاموا باحتجاز السيارة التي يشرف عليها السيد عباس الشوكيّ.

صوت العدالة والإنسانية

كان شباب الحركة الإسلامية، في عددٍ من جوامع المدينة، كخلايا النّحل وهم يقومون بالتحضير لاحتفالاتٍ كبرى ومهرجاناتٍ خطابية للتعبير عن الولاء للإمام عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين وصوت العدالة الإنسانية..

وبعد أداء صلاتَي المغرب والعشاء، أقيمت المهرجانات، وأُلقيَت الكلمات والقصائد والأشعار، واختار بعض الخطباء مقاطع من مقالة للمفكر المسيحيّ

جورج جرداق (على هامة التاريخ)، وقد أقدم البعثيون على حذْفها من المنهج الدراسيّ الثانويّ من كتاب (النصوص الأدبية)، كما حذفوا لامية العجم للطغرائيّ، ربما لهذا البيت من الشعر:

ما كنت أحسب أن يمتدّ بي زمني = حتى أرى دولة الأوغاد والسِّفَلِ

تعمَّد بعض الخطباء قراءة مقاطع من (على هامة التاريخ) من قبيل هذا المقطع:

- وماذا عليكِ يا دنيا لو حشّدتِ كلَّ قِواك؛ فأنجبتِ في كلّ زمن عليّاً بعقله وقلبه ولسانه وذي فَقاره؟!

فيما اختار آخرون مقطعاً في توصيف (نهج البلاغة)، وهو في الحقيقة توصيفٌ لشخصية الإمام أمير المؤمنين صوت العدالة الإنسانية:

- نهج للبلاغة آخذ من الفكر والعاطفة والخيال آيات تتصل بالذوق الفنيّ الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر.. مترابطٌ بآياته متساوقٌ متفجّر بالحسّ المشبوب والإدراك البعيد، متدفّقٌ بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع..

متآلفٌ يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج، حتى ليندمج التعبير بالمدلول أو الشكل بالمعنى، اندماجَ الحرارة بالنار، والضوء بالشمس، والهواء بالهواء؛ فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السَّيل إذ ينحدر، والبحر إذ يتموّج، والريح إذ تطوف، أو قبالة الحدث الطبيعيّ..

بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة وتنزيلٌ من التنزيل.. بيان اتصل بأسباب البيان العربيّ ما كان منه وما يكون، حتى قال أحدهم في صاحبه: إنّ كلامه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق.

واختار بعض الخطباء كلمات للإمام تحثّ على الحياة الكريمة، ورفْض حياة الذلّ والخنوع:

- (الموت في حياتكم مقهورين؛ والحياة في موتكم قاهرين)

كان صباح جالساً إلى جانب جمال الذي بادره بالسؤال عن سبب تأخّره، فأخبره أنه كان في كربلاء؛ وهناك شاهَد إلى جانب ضريح سيد الشهداء.. السيد محمد باقر الصدر، جاء لزيارة جدّه الحسين عليه السلام، وكان في حديث وحوار مع أحد تلامذته، وقد صادفه داخل الحرم..

لم تبدِّد فرحة الذكرى السعيدة الهمومَ التي يكابدها (صباح)، كانت تلوح على وجهه الحنطي بوضوح، كان يبث شكواه وهمّه إلى جمال، قال:

- جاءت تعليماتٌ توصي بالاستعداد للمواجهة ضد نظام البعث، وهناك أخبارٌ تفيد بتوجيه ضربةٍ قوية تستهدف الشباب المتديّن، وهناك تركيزٌ على المساجد وعلى الشباب الذين يداومون على الحضور فيها للصلاة..

وطلب منه الاتصال بكريم وهادي وعبد الأمير وإبلاغهم بتقليل حضورهم في المساجد خلال هذه الفترة..

- إننا نواجه نظاماً شديد الإجرام.. يعاقب على اقتناء كتب الدعاء..

فعقوبة من يجدون عنده كتاب (الصحيفة السجادية) السجن ثلاثة أشهر!! يعني نفْس عقوبة من يجدون عنده (رمّانة يدويّة)!!

هزّ جمال رأسَه مؤيّداً:

- أخبرني أحد الإخوة، واسمه عبد الحسين خلف منشد[1]، أنه أدّى

---

١. الشهيد عبد الحسين من مواليد محافظة واسط، محلة السيد حسين عام ١٩٤٥م، اعتقل سنة

الصلاة في مرقد الإمام الكاظم عليه السلام، وقرأ في قنوته هذا المقطع: (اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة، تعِزّ بها الإسلام وأهله، وتذِلّ بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة)، وعند خروجه من المرقد أوقفه اثنان من عناصر الأمن، وسأله أحدهما: شنو تقصد من الدولة الكريمة في صلاتك؟ فقال على الفور: أقصد تحرير فلسطين من الصهاينة وتعود دولةً كريمة!!

كان صوت عريف الحفل مجلجلاً يهدُر من خلال مكبّرات الصوت، لذلك كان جمال وصباح يتهامسان بكلّ حرية.. تساءل صباح عن إمكانية الحصول على عددٍ من الرمّانات اليدويّة، وأخبره بأنه تمكَّن من توفير ثلاثة (كواتم)، فهناك كلام حول الانتقال إلى مرحلة المواجهة العسكرية!!

وجاء صوت عريف الحفل يقرأ مقطعاً من ملحمة الغدير الكبرى للشاعر والأديب اللبنانيّ بولس سلامة المعروف بـ (أيوب القرن العشرين):

هات يا شعر من عيونك واهتف ... باسم من أشبع السباسب ريّا
باسم زين العصور بعد نبيّ ... نوّر الشرق كوكباً هاشميّا
باسم ليث الحجاز نسر البوادي ... خير من هزّ في الوغى سمهريّا
خير من جلّل الميادين غاراً ... وانطوى زاهداً ومات أبيّا
كان ربَّ الكلام من بعد طه ... وأخاه وصهره والوصيّا
بطل السيف والتقى والسجايا ... ما رأت مثله الرماح كَمِيّا
يا سماء اشهدي ويا أرض قرّي ... واخشعي إنّني ذكرت عليّا
لا تقل شيعة هواة عليّ ... إنّ في كلّ منصفٍ شيعيّا
فإذا لم يكن عليُّ نبيّاً ... فلقد كان خُلقه نبويّا

١٩٨١م، واستشهد في السجن عام ١٩٨٢م. صودق عليه في مؤسسة شهداء العراق بالقرار ٧/٠٢٩٥.

وردّدت جنبات فِناء المسجد صلوات الجمهور على النبيّ وآله الأطهار..

لقد انفجر بركان الغضب الشعبيّ في هذه المدينة الباسلة، وظهَر السيد قاسم المبرقع أسداً هصوراً يتحدّى الطغاة، ويعبّر عن إرادة شعب.. يريد تحطيم سلاسله وأغلاله.. في عينيه، وبرغم تسعين من السنين، تتألق ملحمة كربلاء في يوم عاشوراء، أطول يومٍ في التاريخ.

مغول القرن العشرين

استيقظت مدينة الثورة في فجر ١٣ رجب ١٣٩٩هـ على واحدة من أقسى وأكبر حملة اعتقالاتٍ طالت العديد من رجال وشباب هذه المدينة..

لم تثْنَهم هذه الحملة الشرسة عن إقامة احتفالٍ في جامع الإمام زين العابدين في قطاع ٤٨؛ حيث بدأت مراسم الاحتفال في ليلة ١٥ رجب، وانطلقت الخُطب والكلمات الثورية تتفجّر مثل بركانٍ غاضب.. تهاجم سلطاتِ البعث دون خوف ووجل..

تمّ تطويق المسجد من قِبَل أزلام الجيش الشعبيّ، وتجرّأ أحدهم فوجّه سلاحه نحو المحتفلين، وسادت الفوضى، ولاذت مجموعةٌ من الشباب بحرم جامع الإمام الباقر، فحاول مرتزقة البعث المجرمين اقتحامه، فتصدى لهم السيد محمد شاكر المبرقع ببسالة ومنعهم من اعتقال الشباب..

وبعد منتصف الليل دوهمت بيوتٌ عديدة بدءاً من بيت السيد قاسم المبرقع والسيد محمد شاكر وبيوت وكلاء السيد محمد باقر الصدر، وتمّ اعتقالهم..

وفي مساء اليوم التالي داهمت مجموعات من الأمن (جامع زينب الكبرى)، واعتقلوا عشرات المصلّين، كلّهم من الشباب المثقف الذين يمثّلون الوعي الإسلامي المعاصر..

الملحمة الكبرى

في ضحى يوم الثلاثاء ١٧ رجب ١٣٩٩هـ؛ حزيران ١٩٧٩م، وصل الخبر الرهيب.. اجتمع صباح برفاقه، وأخبرهم بما جرى في النجف الأشرف: في مساء الاثنين، لجأ عشرون من الشباب إلى بيت السيد الصدر، وأخبروه باعتقال السيد جبار الموسويّ إمام مسجد كميل، وأمضوا ليلتهم في بيته باستثناء خمسة منهم تمكّنوا من التسلّل والهروب.. وفي منتصف الليل بدأ رجال الأمن بتطويق بيت السيد الصدر.

وبعد ارتفاع أذان الفجر، كثّفَت القوات الأمنية حضورَها وحصارها.. وجاء (أبو سعد) مدير أمْن النجف ليدخل بيت السيد بعد بزوغ الشمس، وأبلغه بأمر الاعتقال..

السيد الصدر، الآن في بغداد في مديرية الأمن العامة.. ونحن قبل أيامٍ قد بايعناه على الموت..

قال جمال: سمعت خبرَ الاعتقال من القسم العربي في إذاعة طهران.. الإخوة في جامع الإمام الباقر يحضّرون لتظاهرة كبيرة، وهناك تنسيق مع بعض القطاعات..

كانت الاستعدادات تجري بسرعة، وعشرات الشبّان الحركيين يعدّون العدّة لملحمة كبرى، وفاءً للبيعة مع القائد..

يجب ألّا يبقى السيد قائداً بلا جنود.. يجب ألّا يبقى وحيداً.. وعلى وجه السرعة، تمّ إبلاغ جميع خلايا الدعوة والخطوط التنظيمية، بما في ذلك الخلايا النسوية، بالحضور والمشاركة في هذه التظاهرة التي تَقرّر انطلاقها في الساعة الخامسة عصراً. أمّا تحديد الزمان والمكان، فقد تمّ من خلال الداعية الشابّ حسين نعمة، الذي كان يتجوّل في أحياء المدينة بسيارته ويذيع الخبر من خلال

مكبّرة الصوت:

- من فقد طفلاً يرتدي ثوباً مخططاً الحضور اليوم الساعة الخامسة مساء في مسجد الإمام الباقر عليه السلام لاستلامه!

وهكذا تمّ الإبلاغ عن مكان وزمان انطلاق التظاهرة الكبرى من أجل الاحتجاج على اعتقال السيد الصدر، والمطالبة بالإفراج الفوريّ عنه. كانت فاطمة تسابق الزمن من أجل حشْد أكبر عددٍ من النساء للمشاركة والوقوف إلى جانب الرجال الأشدّاء، لذلك تحرّكت ومعها أختها في الله ورفيقة دربها كميلة شرقي وعددٌ من الفتيات من آل المبرقع في الإعداد لحشدٍ نسويّ كبير في تظاهرة اليوم..

إنّ والد فاطمة الماركسيّ لن يتمكّن من إدراك حجم التغيير الجوهريّ في شخصية ابنته.. سوف يطرق خجلاً أمام غضبها الثوريّ وشجاعتها وبسالتها، وهي تقود المواجهة ضدّ نظامٍ همجيّ متوحّش.

في العاشر من حزيران ومن أمام جامع الإمام الباقر عليه السلام في قطاع ٤٩، انطلقَت الحشود الغاضبة تخترق شارع الداخل، وصدحت الحناجر.. حناجر مئات الرجال وعشرات النساء بشعارات الثورة والرفض للظلم والاستبداد والدكتاتورية:

- عاش الخمينيّ والصدر، والدين دوماً منتصر!
- يسقط صدام والبكر، والدين لازم ينتصر!

احتشد الأهالي كباراً وصغاراً.. فتيات وأطفالا ونسوة من كلّ الأعمار.. الجميع ينظرون بإعجاب إلى هؤلاء الشباب وإلى الفتيات وقد امتزجَت الأصوات في تناغم، ليولَد صوتٌ ثوريّ يعبّر عن إرادة الجماهير وثورتها ضدّ نظام البعث..

بَرَق الغدر في عيون البعثيين القتلة، وصوّب أحدُهم من داخل السيارة ويدعى (عبد الرحمن موسى عبيد) رئيس نقابة معمل البيرة في بغداد.. صوّب

مسدّسه نحو الشابّ (محمد عباس خضير)، فهوى شهيداً مضمّخاً بدماء الكرامة، فلمَحه (حجّي سيد) ذلك الكهْل الذي يعمل قصّاباً، فعاجل المجرم بالساطور وأرداه وانقضّت عليه (أم باسم) امرأةٌ من آل المبرقع بسكّين..

وصلت تعزيزاتٌ من مرتزقة الجيش الشعبيّ لتحاصر المتظاهرين، واختلطَت الشعارات الثورية بلعلعة رصاص البعثيين، وجرت معركةٌ بين العزّل من السلاح إلّا سلاح الإيمان وبين مرتزقة النظام المجرم الذي كشّر عن أنياب تنزّ صديداً..

شنّت أجهزة الأمن وبالتنسيق مع مرتزقة الجيش الشعبيّ حملة اعتقالاتٍ واسعة، وتخطّف البعثيون أكثر من سبعمائةٍ من شباب المدينة وفتياتها.

اختطف ذئاب الليل خولة الدلفيّ، وبلقيس عبد الزهرة، وسلامات عباس، وفائقة الغبان، وأزهار، ونجاة، ووفاء، وعدداً من النسوة العلويات من آل المبرقع؛ مريم، وزهراء، وعليّة.. فتياتٌ بعمر الزهور.. فتياتٌ في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من ربيع العمر..

الفتاة العراقية في هكذا عمر وفي بيئةٍ اجتماعية وثقافية مثل مدينة الثورة ذات الهوية الجنوبية لا يمكن أن يكون لديها أدنى تصوّرٍ لما تتعرّض له، وهي تَجد نفْسها فجأة في أسْر نظامٍ متوحّش إلى أبعد الحدود..

اختفى في ذلك اليوم مئات الشباب، واقتيدوا نحو المجهول، ولو قُدّر للمرء وهو يتابع جانباً من تفاصيل اعتقال فتاة في السادسة عشرة من العمر.. اعتُقلت فجراً أمام دهشة والدها ذلك الرجل الوقور الذي وقف عاجزاً لا يستطيع حماية ابنته الصغيرة من ذئاب الليل..

لقد اقتيدت سلامات، ذات الستة عشر ربيعاً، إلى أقبية التعذيب لتجد نفسها بين ذئاب كاسرة.. ضابط التحقيق الذي يرتدي ملابس أنيقة، هو في الحقيقة

ذئبٌ متوحّش.

استقبلها بصفعةٍ مدوّية شعرَت أنّ رأسها قد انفجر، وتدفّقَت الدماء من أنفها غزيرةً بحيث اضطروا إلى نقلها إلى المستشفى، لم تُوجَّه لها أيّة اتّهامات، وإنما سيْل من الإهانات ومن الكلمات البذيئة.. ولا عجب؛ فالإناء ينضح بما فيه؛ فهؤلاء معظمهم وُلدوا من أُمّهات ساقطات؛ ولذلك تراهم يتفنّنون في تعذيب الفتيات المحجّبات!

وبعد أيامٍ معدودة، سيقت إلى المحاكمة بعد منتصف الليل، ومعها عشرات الشباب الذين اعتُقلوا قبيل فجر الثامن عشر من رجب ١٣٩٩هـ. في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وقفت سلامات في قفص الاتهام ومعها ستون من الشباب.. كانت ما تزال تحت تأثير الصدمة.. تنظر إلى هيئة المحكمة، ولا تستطيع أن تميّز بين رئيس المحكمة والمدّعي العام والمحامي الذي عيّنته الحكومة للدفاع عن المتّهمين.. لأن الثلاثة كانوا يهاجمون المتّهمين، وثلاثتهم كانوا يشتِمون، وثلاثتهم كانوا يطلقون الكلمات البذيئة ضدّهم!! سلامات ذات الستة عشر ربيعاً، تقف حائرةً في ذلك الوقت المتأخّر من الليل في قبضة البعثيين المنحطّين..

استغرقت محاكمة هذا العدد ثلاث ساعات فقط؛ يعني لكلّ متّهمٍ ثلاث دقائق فقط!!!

خلال دقيقتين فقط، تمّت محاكمة «سلامات عباس يوسف»، والحكْم عليها بالسِّجن المؤبّد، ومن دون توجيه أيّ اتّهام محدَّد.

وفي منتصف حزيران ١٩٧٩م؛ رجب ١٣٩٩هـ، انعقدت محكمة الثورة برئاسة الجلّاد مسلم الجبوري؛ لتحاكم السيد قاسم المبرقع ومعه نخبةٌ من شباب العراق ورجاله، واختفى فجأةً ذلك السيد الوقور من القاعة، وتصوَّر المجرمون

أنه قد هرب، وبعد البحث عثروا عليه يصلّي في زاوية من زوايا المبنى، فبادره أحدهم قائلاً:

- هذا وقت صلاة؟!

أجاب الرجل بإباء:

- كُلّ الذي لاقيناه من أجل الصلاة؛ وهل يمكن تركها؟!

خاطبه المجرم الجبوري بجِدّة، وحمّله مسؤولية ما جرى في أنحاء العراق من تظاهراتٍ صاخبة؛ في النجف، والكاظمية، ومدينة الثورة، والسماوة، ومدينة الفهود، والخالص، وجديدة الشطّ، وجيزان الچول، و..

- كلّ الاضطرابات الحاصلة في العراق سببها أنت!!

بهذه الكلمات وجّه القاضي اتّهامه للسيد الوقور. وهكذا اختفى الآلاف من أبناء العراق عن مسرح الحياة، وانقطعَت أخبارهم عن أهاليهم.. كانت ضربةً موجعة وجّهها نظام البعث لكيان الحركة الإسلامية وامتداداتها داخل العمق الاجتماعيّ..

تمكّن البعثيون من بثّ الرعب داخل المجتمع.. أبناؤه رهائن تحت سياطهم ووسائل تعذيبهم وهمجيّتهم.. وكلاء السيد الصدر في عموم العراق، تمّ اعتقالهم وتوارى بعضهم عن الأنظار. كان جواسيس النظام وأجهزته الأمنية تراقب المساجد والحسينيات، وتحصي الأنفاس.

ووصلت تعليماتٌ إلى جميع خلايا حزب الدعوة الإسلامية بالاستعداد لمرحلة جديدة في مواجهة نظام البعث في (الكفاح المسلح) و(المواجهة العسكرية)، وأنّه السبيل الوحيد لتحرير العراق من براثن النظام البعثيّ الهمجيّ..

وكان الخيار الوحيد أمام الإنسان العراقيّ أن يتنازل عن كرامته إذا ما أراد

البقاء حياً.. وهكذا دخلت مدينة الثورة حقبةً مظلمة.

اتّشحت هذه المدينة المقهورة بالسواد، واستحالت أُمنيات أبنائها بغدٍ مشرق إلى مجرّد أوهـام وخيالات تتـراءى لها من وراء دُخـان كثيف.. من الظلمات. ازدادت شخصية الإنسان في هذه المدينة تعقيداً.. وظهر جيل يعيش حالةً مخيفة من الازدواجية.. بعد أن تهشمت وحدته النفسية ليصبح أشبه ما يكون بلوحة سوريالية، ووجه مشوّه.

صحيح أنّ النظام قام بـإطلاق السيد الصدر والسيد الخطيب والشيخ السنجري، إلا أنّ هذا الإجراء كان محاولة لامتصاص الغضب الشعبيّ العارم، ومن ثمّ الانقضاض مرّةً أخرى واعتقال الآلاف.. لذلك عمدَت إلى السَّماح بزيارة المعتقلين للتعرّف على امتدادات الحركة الإسلامية وخيوطها.

أيام الحصار

في ليلة الثامن عشر من رجب ١٣٩٩هـ مساء الثلاثاء؛ الثاني عشر من حزيران ١٩٧٩م، أقام السيد الصدر آخر مجلسٍ حسينيّ في بيته، حضره عددٌ قليل من المؤمنين ومن عناصر أمن النظام..

وفي ضحى اليوم التالي، كانت قوات الأمن تلقي القبض على الشباب الذين توافدوا لزيارة السيد في بيته، واستمرّت الاعتقالات إلى نهار يوم الخميس، فبادر السيد إلى إغلاق الباب من أجل حماية الشباب..

وفي عصر يوم الخميس، اتصل (أبو أسماء) مدير الشعبة الخامسة في مديرية الأمن العامة - سيئة - الصيت ببيت السيد الصدر، وأبلغهم بأمر احتجاز السيد في بيته؛ حيث لا يحقّ له الخروج، ولا يسمح لأحد بالدخول عليه باستثناء صهره وابن أخيه السيد حسين بن إسماعيل الصدر، ويتعيّن على السيد حسين الاتصال بفاضل البرّاك مدير الأمن العام وإخباره بأنّ زوجته تريد زيارة والدها!!

السّماء تفتح أبوابها في المساء

كان السيد الصدر ينظر بأمل إلى الشعب العراقيّ، خاصة بعد تدفُّق حشود الوفود التي جاءت لمبايعته على السير في طريق المواجهة ضدّ نظام البعث الغاشم وبعد انتفاضة ١٧ رجب الكبرى في العديد من المدن العراقية احتجاجاً على اعتقاله وتنديداً بالنظام البعثيّ العفلقيّ..

في يوم الخميس ١٩ رجب؛ ١٤ حزيران، بثّ القسم العربيّ في إذاعة طهران نَصَّ برقية وجّهها الإمام الخمينيّ إلى السيد الصدر، جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله الحاج السيد محمد باقر الصدر دامت بركاته.. النجف الأشرف

إنّ الحوادث الأخيرة تبعث على الأسف الواحدة تلو الأخرى.. لمْ يكن متوقّعاً أن يتمّ التعامل معكم وأنتم الشخصية العلمية الإسلامية بهذه الطريقة.. كما لم يكن متوقّعاً أن تنتهك القوات العراقية حُسْن الجوار على خطّ الحدود..

إنّ الحوزة العلمية في النجف الأشرف التي تخدم الإسلام والمسلمين، قد حفظت على مرّ التاريخ استقلال العراق؛ بل سائر البلدان الإسلامية، وليس متوقّعاً أن تتعرض للإهانة، وأن يتمّ التعرّض إلى واحد من أبرز عظمائها حضوراً. إنّني أنصح الحكومة العراقية أن تحافظ على هذا الحصن الحصين الذي يحمي مصالح البلد، وهذا ما كنت أنصح به الشاه المخلوع والحكومة الإيرانية سابقاً.

أسأل الله تعالى أن يمنّ على الإسلام بالعظَمة، وعلى البلدان الإسلامية بالاستقلال.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

روح الله الموسوي الخمينيّ

وخلال تلك الأيام، كانت قطعات الجيش العراقيّ تواصِل تدفّقها باتّجاه الحدود مع إيران، وينقل الجنود العائدون من تلك المناطق في إجازات؛ أنّ وحداتٍ عسكرية استولت على مناطق حدودية فيما عرف بـ (زين القوس) القريبة من مدينة خانقين الحدودية..

وفي جميع وحدات الدفاع الجويّ، تمّ إنزال لوحات تمييز الطائرات الإسرائيلية، وعُلّق مكانها (لوحات تمييز الطائرات الإيرانية)، في وقت كانت فيه شرائح واسعة من المجتمع العراقي ما تزال تعيش تحت تأثير الهزّات العميقة التي أحدثها زلزال الثورة الإسلامية.. وكان الملايين يستمعون إلى إذاعة طهران (صوت الثورة الإسلامية في إيران).

السيد قاسم شُبّر

وصل الداعية الشابّ علي ناصر إلى بغداد قادماً من الكوت، واتصل بخلايا الدعاة في بغداد؛ وروى لهم ما جرى في مدينة النُّعمانية من أحداث يوم الجمعة ١٥ حزيران؛ ٢٠ رجب..

حاصر البعثيون الأوغاد الجامع الذي يصلّي فيه السيد قاسم شُبّر أثناء أداء صلاتَي المغرب والعشاء، ثمّ دخلوا حرم المسجد بأحذيتهم، وأخذ أحدُهم مكبّرة صوت وراح يقرأ بوقاحة افتتاحية جريدة الثورة التي تهاجم الثورة الإسلامية وقائدها السيد الخمينيّ، وكان ردّ الشباب هتاف الله أكبر تُردّد صداه الجدران، فتحوّل البعثيون إلى فئران تتقافز هاربة..

وتحوّل الهتاف إلى تظاهرة غاضبة يتقدّمها السيد قاسم، ذلك الرجل الذي لمْ تُضعف همّته وإرادته تسعون من السنين والأعوام.. كانت التظاهرة تكبر وتكبر وهي تجوب شوارع المدينة الصغيرة إلى أن وصلَت إلى دار السيد، حيث طلب منهم التفرّق والحذر مِن غدر البعثيين.

في الساعة التاسعة من نفس اللّيلة، دخل دار السيد ثلاثة أشخاص ملثّمين، وجلسوا في غرفة الاستقبال، وقال أحدهم للسيد: أنت تثير الطائفية.. أنت تتكلّم عن النصارى في درس التفسير، وعليك أن تكفّ عن ذلك.. فنهَره السيد قائلاً: يا عديم الأدب! ثمّ طردهم.. وانتشر الخبر، فحضر بعض الرجال لحراسة السيد.. وفي الساعة الحادية عشرة، تم تطويق المنطقة، ووصلت قواتٌ من الكوت، وبلغ الاحتقان ذروته، وحصلت معركة غير متكافئة خاضها الشباب المؤمن الذي لا يملك سوى العصيّ والسكاكين، وظهر السيد كاللّيث وفي قبضته مطرقة، وشقّ سكينةَ الليل أزيز الرصاص، ومع ذلك تمكّن الشباب من طرد البعثيين الأوغاد والتحصّن داخل الدار.

في منتصف اللّيل، جاء أحد وجهاء المدينة، ودخل على السيد، وحاول إقناعه بالسفر إلى الكوت ولقاء المحافظ فقط.. إنهم يريدون الجلوس معكم يا سيدنا، وليست لديهم عداوة..

ثمّ حذّره من الامتناع؛ لأنهم قرّروا نسف المدينة، وهدْم الدُّور على سكّانها!

قال أحد الشبّان: سيدنا الكريم؛ هؤلاء لا عهد لهم، وهم غَدَرَة فَجَرَة.. هذه مكيدة من (الأمن)..

تدخّل الرجل الوجيه وطلب من السيد ألا يأخذ بكلام الشباب والمراهقين والأطفال..

مرّت لحظات صمت.. بعدها طلب السيد قلماً وورقة ليكتب وصيته في تلك اللحظات المصيرية..

تناول عصاه ونهض، وكانت حفيدته الصغيرة قد تعلّقت به؛ ما إن فتح الباب حتى وجد نفسه بين مخالب ذئاب البعث التي اقتحمت الدار، وراحت تُلهب الشباب بـ(الكيبلات)، ولم يستثنوا حتى تلك الطفلة البريئة.. وسيق السيد ومعه

عشرون من رجاله الصابرين.. وقام بعضهم بإطلاق الرصاص على مكتبته الكبيرة! كدّسوا المعتقَلين في سيارة (بيك آب)، ووضعوا فوقهم العجلات الاحتياطية، وكانوا يصفّقون ويرقصون ويطلقون النار في الهواء..

انطلقت بهم السيارة إلى مدينة الكوت، وأُجريَ معهم تحقيقٌ سريع، وفي اليوم التالي نُقلوا، في سيّارةٍ مقفلة، إلى مديرية الأمن العامة في بغداد، وتم استقبالهم بالكيبلات من قبل عناصر الأمن التي اصطفّت على الجانبين، ثمّ جاء ضابطٌ يحمل إضبارة كبيرة، فبصق في وجه السيد قائلاً:

- هذي مصايبك ومشاكلك ضدّ الثورة يا سيد قاسم!!! هذي الإضبارة يا سيد قاسم تحتوي على تقارير عشر سنوات؛ وانهالوا عليه بالضرب.. ثم أُحضِر جهاز تسجيل وانطلق صوت السيد هادراً في أحد الاحتفالات الدينية في مدينة الكاظمية:
- إن من مكاسب الحزب (البعث) في النُّعمانية، هو فتح بار للمشروبات لإفساد الشباب!

قال الضابط بكل وقاحة:

- يا رجعيّ سننهي حياتك!

أجاب السيد ببسالة:

- ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

وفي إحدى جولات التعذيب، قال فاضل البرّاك مدير الأمن العام:

- ماذا تطلبون وتريدون من سيادة الرئيس ومن حزب البعث؟! انظر إلى عدد المساجد التي بنيت في عهد الثورة!

---

١. طه: ٧٢

قال السيد بوقار:

- التاريخ يحدّث عن كثرة المساجد التي بناها معاوية بن أبي سفيان، وهو أكبر المنحرفين والزنادقة!!

أشار البرّاك إلى جلاوزة الأمن؛ فامسكوا بيد السيد وبسطوها، فضربها ضربة شديدة وكسرها.

نقل السيد قاسم إلى قاعةٍ أخرى كانت في الأصل داراً للسينما تمّ إخلاؤها لحشر مئات المعتقلين فيها بعد أن غصّت أقبيةُ مديرية الأمن العامّة بشباب العراق ورجاله؛ وكان الحارس الواقف عند باب القاعة يطلق تحذيراته إلى المعتقلين بأن لا يقتربوا من السيد؛ لأنه مسلول (مصاب بداء السلّ)، ولا يأكلوا معه أو يشربوا.

وبعد مدة تمّ نقلُه إلى مستشفى الرشيد العسكري في الردهة الخاصة بالمعتقَلين. كانت ثيابه دامية وقد جمد الدم على وجهه وعاتقه ومع ذلك ما انفكّ يحاول إرشاد رجال الأمن المحيطين به، ويأسف لمصيرهم!! قال لأحدهم:

- ماذا تقول غداً لرسول الله ﷺ وأنت بيدك تكسر أيدي المؤمنين؟! وأخذ يوضّح لهم خطط حزب البعث للقضاء على الإسلام.

إنّ التعامل بهذا المستوى من الوحشية والهمجية مع شيخٍ ناهزَ التسعين، يعكس أخلاقية نظام البعث وقسوته التي تجاوزت كلّ الحدود.

المحنة الكبرى

شنّت أجهزة نظام البعث أكبر حملة اعتقالات في تاريخ العراق طالت الآلاف من شبابه ورجاله، وقد أحدثت هذه الحملة إرباكاً في صفوف الحركة الإسلامية، واضطرّ قادتها إلى اتخاذ قرار المواجهة العسكرية، وراح الدعاة يعدّون العدّة

للتسلّح وشنّ عملياتٍ فدائية، والبدء بصفحةٍ جديدة من النضال والجهاد ضد نظامٍ همجيّ لا يعرف غير لغة القوّة.

كان صدام هو من يحكم العراق بالحديد والنار، وليس البكر الذي لم يعُد له أيّ وجودٍ حقيقيّ كرئيس للدولة.. صدام يمثّل حقّ القوة.. وكان السيد محمد باقر الصدر يمثّل قوة الحقّ.. وهكذا ظهَر على مسرح الأحداث صراعٌ رهيب بين قوة الشرعية وشرعية القوة.. بين الإنسانية والهمجية.. بين الإنسان الحرّ والطاغية الذئب؛ وصدق الله العلي العظيم؛ إذ قال في كتابه المجيد: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1]. هذه هي سُنَن التاريخ البشريّ، وقصة الإنسانية في تاريخها الطويل..

وصلت التعليمات إلى جميع خلايا الدعوة بالاستعداد لتظاهرةٍ كبرى في يوم الخامس والعشرين من رجب، ذكرى استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام، والتي تصادف العشرين من شهر حزيران..

في يوم ١٨ رجب؛ أي قبل حلول الذكرى الأليمة بأسبوع، فوجئ الدعاة بالقسم العربيّ في إذاعة طهران يذيع خبر التظاهرة التي ستنطلق من جوار المرقد الطاهر في مدينة الكاظمية!

وفي اليوم التالي دفعت سلطات البعث بقطعات من الجيش الشعبيّ بكامل تجهيزاتها القتالية، والتمركز في مداخل الشوارع والميادين والطرق المؤدية إلى المدينة.. وامتلأت المدينة بعناصر الأمن والاستخبارات وهي ترتدي مختلف الأزياء؛ عمّالا وزوارا ومتسوّلين!

وهكذا حصلت السلطات على هديةٍ مجانية منحتْهم فرصةً ذهبية لتطويق واحتواء ما سوف يحصل في هذه المدينة الأبيّة.

---

١. الفرقان: ٣١

٢٥ رجب ١٣٩٩هـ؛ ٢٠ حزيران ١٩٧٩م

كانت الأجواء في مدينة الكاظمية مشحونةً بالخطر، وقد بدأ توافُد الزوّار إليها من المدن والقرى؛ وأصبح مرقد الإمامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد صلوات الله عليهما واحـةَ الـسلام في بغداد التي تئنّ تحت سياط البعثيين الأوغاد، وما أكثر الأمهات اللائي يبحثن عن أفلاذ أكبادهنّ المغيّبين في المعتقلات والسجون. في غضون ذلك بدأ تقليدٌ جديد بالظهور؛ حيث تفِدُ النساء الملفّعات بالسواد على المرقد الطاهر، ويجلسن في الصحن، ويشرعنَ في البكاء والشكوى.. وثَمّة أُمّهات يأتين من مدنٍ قريبة وبعيدة، ويتجمّعن أمام باب مديرية الأمن العامّة في شارع النضال، ويقدّمن العرائض بحثاً عن الأبناء الذين تخطّفتهم ذئاب البعث تحت جنح الظلام؛ بعدها يقصدن مدينة الكاظمية، ويتجمعن في الصحن بين باب المراد والضريح، ويأخذن في النواح الذي يقطّع نياط القلب.

وجّهت أجهزة الأمن ضربةً استباقية، وشنّت حملة اعتقالات واسعة، شملت آلاف الشباب.

تزامنت هذه الحوادث الدامية مع انعقاد محكمة الثورة برئاسة اللواء مسلم هادي الجبوريّ، للنظر في القضايا المحالة إليها من قبل مديرية الأمن العامّة وجهاز المخابرات العامّة، ومحاكمة المتهمين على خلفيّة حوادث رجب، واستمرّت جلسات المحكمة أسبوعاً كاملاً لتصدر أحكامها بإعدام ٨٦ شخصاً، معظمهم من علماء الدين، وفيهم العديد من وكلاء السيد محمد باقر الصدر، ومن بين المحكومين ٢٦ عسكرياً، كما أصدرت المحكمة على ٢٠٠ شخص أحكاماً بالسجن مدى الحياة، وعلى ٨١٢ شخصاً بالسجن لفتراتٍ متفاوتة، وبقي آلاف المعتقَلين في معتقلات الأمن العامّة دون محاكمة.

وفي مساء ٥ شعبان؛ ٢٧ حزيران ١٩٧٩م، أذاع القسم العربيّ في إذاعة طهران

التسجيل الكامل للحوار الذي دار مع السيد محمد باقر الصدر عبر الهاتف:

- السلام عليكم
- وعليكم السلام
- سيدنا كيف صحتكم؟
- الحمد لله
- مرتاحين إن شاء الله؟
- نحمد لله.. الله يرعاكم
- سيدنا
- نعم
- في.. فيما يخصّ الحوادث الأخيرة.. شنو نظركم؟
- يوجد هنا أجوبة على البرقيات
- نعم
- أريد أن أبعث أجوبة على البرقيات
- نعم.. نعم تفضّلوا
- سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيد الخمينيّ دام ظلّه.. استمعت إلى برقيتكم التي عبّرَت عن تفقّدكم الأبويّ لي، وإنّي إذ لا يتاح لي الجواب برقياً لأنّي مودعٌ في زاوية البيت.. لا يمكن أن أرى أحداً أو أن يراني أحد؛ لا يسعني إلا أن أسأل المولى سبحانه وتعالى أن يديم ظلّكم مناراً للإسلام، ويحفظ الدين الحنيف بمرجعيتكم القائدة، كما أسأله تعالى أن يتقبّل منّا العناء في سبيله، ويوفّقنا للحفاظ على عقيدة الأمّة ومُثلها العظيمة؛ فليست حياة أيّ إنسان إلا بقدر ما يعطي لأمّته من وجوده وحياته وفكره، وقد أعطيتم

للمسلمين من وجودكم وحياتكم وفكركم ما سيظلّ على مرّ التاريخ مثلاً عظيماً لكلّ المجاهدين.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- سيدنا سمعنا أخيراً أن صحّتكم غير جيدة.. صحتكم زينة انتوا اليوم أو لا؟
- صحّتي لا قيمة لها.. لا قيمة لها حبيبي.

كان صوته مثقلاً بحزن الأنبياء.. مترعاً بالمرارة والألم.. أنصاره في السجون والمعتقلات، يرزحون تحت أقسى وأشدّ أنواع التعذيب، وترتقي أرواحهم إلى بارئها شهداء؛ الواحد تلو الآخر.. ومن المؤكَّد أنه يتمنى الشهادة؛ لأنّ نهايةً مريرة أفْضل بكثير من مرارة بلا نهاية.

الحُرّ والطاغية

السيد قاسم شُبّر واقفٌ كاللّيث رغم جولات التعذيب.. واقفٌ رغم أثقال التسعين لاسيما السنون العشر الأخيرة التي كانت أكثرها مرارة وألماً؛ لأنه من الصعب على الإنسان الحرّ أن يعيش تحت سطوة الطغاة وعبيدهم..

قال المجرم الجبوريّ بغطرسةٍ وحقد:

- اسمك
- سيد قاسم شبّر
- ـ أنت إيرانيّ وغريب على الوطن!
- ـ ليس للمسلم وطن خاص؛ وليكن في علمك يا هذا؛ إنّني ابن رسول الله ﷺ، والغريب على الوطن هو ميشيل عفلق وأتباعه
- أنت مجرم

- المجرم مَن هتَك العباد والبلاد وسلّمها للإنجليز والصليبيّين.
- ما تخجل، عمرك في التسعين تحارب حكومة البعث التقدُّمية؟!
- هذا هو حُسن العاقبة أن أحارب أمثالكم.

انفجر الجبوريّ غيظاً وحقداً، وضرب على المنضدة ليصرخ بصوتٍ مسعور:

- حكمَتك المحكمة بالإعدام رمياً بالرصاص.
- ابتسم السيد الوقور، وقال:
- ما أجملها من ليلةٍ كنت أنتظرها طول عمري.. أن أُقتَل في سبيل الله على يد أشرّ خلق الله..

يا لها من فرحة!.. إنها والله الشهادة! إنها والله الأمنية أن أكون مثل جدّي الحسين.

ثم خاطب الحاكم البعثيّ قائلاً:

- ـ إنكم من الذين يحاربون الله ورسوله، ويقتلون أولياء الله، ويعيثون في الأرض الفساد.. وإن الله لكم بالمرصاد.

ويبدو أنّ مَحاكم البعث شعرت بالإحراج من إعدام رجلٍ تسعينيّ، فأنقصت من سنين عمره أربع سنوات في شهادة الوفاة!! ولم يتمّ تسليم جثمانه الطاهر إلى أسرته.

كما جرى تنفيذ حكم الإعدام بالسيد قاسم المبرقع إمام الجماعة ووكيل السيد الصدر في جامع الإمام محمد الباقر عليه السلام.

خيّم الحزن على مدينة الثورة، وساد الوجوم والقلق والحذر وشتى المشاعر الغامضة في البيوت الحزينة.

وبعد أسبوعين فوجئ الشعب بظهور الرئيس أحمد حسن البكر يقدّم

استقالته بسبب حالته الصحيّة، وتعيين نائبه صدام رئيساً جديداً للعراق!

لا أحد يعرف ماذا سيحدث، وبدا المستقبل غامضاً يلفّه الظلام، وبعد ثلاثة أسابيع وفي يوم ٨ آب تساقطَت رؤوسٌ كبيرة من قادة حزب البعث فيما عُرف بـ (مجزرة الرِّفاق)، وفي طليعتهم: محمد محجوب، ومحمد عايش، وعدنان حسين الحمدانيّ، وغانم عبد الجليل، وعبد الخالق السامرائيّ، ومحيي عبد الحسين، وكان الأخير قد ظهر وهو يقدم اعترافاته حول مؤامرةٍ مزعومة ضد الحزب والثورة!!

وبعد خمسة أيام من ذلك صدر قرارٌ بإطلاق معظم السجناء السياسيين بما فيهم أبناء الحركة الإسلامية.. ثمّ ما لبث النظام أن ارتدّ وراح يلاحقهم في كلّ مكان، ويعيد اعتقالهم من جديد..

وفي ١٧ تشرين الأول، زار صدام مدينة النجف الأشرف على نحوٍ مفاجئ، وقد صُدِمت جماهير المدينة بحجم الانتشار الأمنيّ القادم من بغداد.. ١٤ حافلة كلّ واحدة تحمل ٣٥ عنصراً من الحرس الخاص، إلى جانب ١٠٠ سيارة مرسيدس ليموزين..

الأجواء في العراق مشحونة بالخطر، وقد ظهر صدام طاغيةً يحكم العراق بالحديد والنار؛ تتأجج في عينيه شهوة القتل.

أحزان كانون

في يوم ١١ كانون الأول ١٩٧٩م، وصل إلى بغداد جثمان الشيخ محمد جواد مغنية، والذي يصادف ٢٢ محرم؛ ذكرى سقوط بغداد على أيدي المغول، واليوم بغداد ترزح تحت حكم السّفَلة النغول!!

كان يوماً حزيناً.. السماء ملبّدة بالغيوم.. وأبواب الحوزة العلمية في النجف مغلَقةٌ حـداداً على الراحل الكبير الذي أسهم في بلورة الوعي في أوساط

المثقّفين العراقيين وبخاصة في أوساط الحركة الإسلامية.. وكان كتابه (الشيعة والحاكمون)؛ وبالرغم من استمرار منعه وملاحقة من يقتنيه، يلهب وجدان الدعاة. تمّ تشييعه من مطار بغداد إلى ضريح الإمام موسى الكاظم وحفيده الإمام الجواد عليهما السلام ثم إلى كربلاء، وطافوا بالجثمان الطاهر حول ضريح سيد الشهداء، وبعدها انطلق الموكب صوب مدينة النجف، حيث تمّ تشييعه إلى مرقد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وصلى على جثمانه الطاهر السيد أبو القاسم الخوئيّ في ساحة الحضرة، وأقيمت مجالس الفاتحة في نقاطٍ عديدة من النجف.

ولم يحضر السيد محمد باقر الصدر مراسم التشييع، ولا مجلس الفاتحة الذي أُقيم على روحه في بيت السيد الخوئيّ بسبب إجراءات الاحتجاز والحصار المضروب على بيته منذ عدّة أشهر، وقد سمع بنبأ الوفاة من خلال مذياع مرقد الإمام عليّ عليه السلام.

لم تشرق شمس ذلك اليوم، وظلّت غائبةً وراء جبال من السُّحب الداكنة.. وفي المساء أصبح الفضاء مسرحاً للبروق والرعود المدوّية.

كانت قيادات الحركة الإسلامية تتجه في تفكيرها إلى القيام بانقلابٍ عسكريّ يطيح بنظام البعث العفلقيّ؛ خاصة وقد بلغ التنظيم العسكري مستوى كبيراً وأصبح يضمّ عدداً من كبار الضباط وضباط الصف، وكان الذي يشرف على الجناح العسكريّ في الحركة الداعية عبد الأمير المنصوريّ من أهالي مدينة البصرة التي تُعَدّ قلعةً كبرى في تلك الفترة العصيبة.

عبد الأمير المنصوري كان يعيش في دار بمدينة الشعب في بغداد، وكانت مخبأه السرّيّ.. في تلك الليلة كان عبد الأمير المنصوريّ في بيت المحامي السيد حسن شُبّر في الكرادة في اجتماعٍ لبحث موضوع الانقلاب العسكري مع أعضاء اللجنة القيادية.

وانفضّ الاجتماع بعد منتصف الليل، وكان على السيد شُبّر أن يوصله إلى داره في حيّ الشعب حيث يختفي.

السماء تمطر بغزارة.. والسيارة تشقّ طريقها في الشوارع الغارقة في الظلام والمطر، كانا يصغيان إلى رشقات المطر على زجاج النوافذ، وربما كانا يفكّران في المستقبل.. متى تنتهي ليالي الزمهرير الحالكة؟! وتشرق شمس الحرية والكرامة الإنسانية؟!

توقفت السيارة أمام الدار وترجّل عبد الأمير بعد أن ألقى التحية على السيد حسن.. وأدار المفتاح في قفل الباب.. تحركت السيارة تغادر المكان..

ما إن دخل عبد الأمير حتى تخطّفته ذئاب البعث، واقتادته على الفور إلى مبنى مديرية الأمن العامة في شارع النضال بالقرب من كنيسةٍ صغيرة تطلّ على ساحة التحرير في منطقة الباب الشرقي!! وظلّ السؤال دون جواب: كيف تمّ الكشف عن المخبأ؟!

كان اعتقال عبد الأمير المنصوريّ يُعَدّ أكبر ضربة تلقّتها تشكيلات حزب الدعوة، وبدأت أجهزة الأمن حملة اعتقالات كبرى في عموم العراق، شملت الآلاف، وكان صدام يشرف مباشرة من مكتبه في القصر الجمهوري على مجريات التحقيق، ومنح أجهزة الأمن صلاحياتٍ مطلقة في طرق التعذيب واستجواب المعتَقلين، وقد تفنّن ضباط التحقيق في أساليب التعذيب الوحشية، وكانوا بحقّ ذئاباً بشرية ووحوشاً كاسرة تمزّق أجساد ضحاياها بدمٍ بارد!!

ظهَر عبد الأمير المنصوريّ يدلي باعترافاته الخطيرة على شاشة التلفزيون.. واختفى مئات الشباب وانقطعت أخبارُهم، وخلت البيوت منهم وكأنّهم لم يولدوا ويعيشوا ويدرسوا ويحلموا ويحبوا ويتطلّعوا إلى مستقبلٍ مشرق!

مثلما تنطفئ الشموع في ليالي الزمهرير، انطفأوا ورحلوا واختفوا عن مسرح

الحياة، مخلّفين وراءهم الذكريات أجراساً تقرع في نفوس الأحبة.

وتحوّل ذلك البيت في مدينة الشعب إلى بيتٍ للعنكبوت لاصطياد فراشات النور.

كانت اعترافات المنصوريّ كارثيّة، تلقّت تشكيلات حزب الدعوة على أثرها ضربةً قاصمة، وانطفأ الأمل في القيام بعملية انقلابية وتحرير الوطن من براثن حزب البعث المجرم العميل للدوائر الماسونية.

العمل المسلّح

أجبرت همجيّة النظام البعثي القاتل التنظيمات الإسلامية على انتهاج العمل المسلّح طريقاً لتحرير الوطن، والإطاحة بعصابات البعث الإجرامية.

كان البعثيون الأوغاد قد دأبوا على إقامة حفلات الإعدام، ففي ١٧ آذار ١٩٨٠م؛ الموافق لـ ٢٩ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ تم إعدام القيادي في حزب الدعوة الإسلامية الشيخ حسين معن التلميذ البارز للسيد الصدر، ووكيله في مدينة الحلّة.

كانت أجهزة الأمن تطارده منذ وقتٍ طويل، واضطرّ إلى التواري عن الأنظار مدّة؛ ثمّ تمكّن من العودة إلى مدينة النجف الأشرف بهوية مزوّرة باسم «فاروق محمد - معلم»، وأُلقِيَ القبض عليه بهذا الاسم وعُذّب تعذيباً رهيباً، ثم حوكِم وحُكِم عليه بالسجن مدى الحياة، ونُقِل إلى سجن (أبو غريب)، وبقيت أجهزة الأمن تلاحِق الشيخ حسين معن، وبعد سبعين يوماً من وجوده في السجن؛ تعرّف عليه أحد السجناء، ووصل الخبر إلى دوائر الأمن التي اقتادته إلى أقبية التعذيب، وكان ضباط التحقيق يعذّبونه لمجرّد التعذيب والانتقام، ثمّ حوكم مرّةً أخرى ليُحكَم عليه بالإعدام شنقاً. بلغ عدد المحكومين بالإعدام شنقاً حتى الموت ٩٦ داعية من كوادر الحركة الإسلامية. في مدّة اختفائه ألّف كتابه (بحثٌ في نظرية المعرفة) إلى جانب تأليفه (الحرية في الإسلام) و(العلاقة الفقهية في

الاقتصاد الإسلامي). ونظراً لمتطلبات المرحلة القاسية التي يمرّ بها الدعاة وأبناء الحركة الإسلامية، ألّف كتابَه المهمّ (نظرات في الإعداد الروحي) من أجل إعداد المجاهدين روحياً وأخلاقياً وهم يخوضون حرباً قاسية للغاية ضد نظام البعث المنحطّ.

في مساء الحادي والثلاثين من آذار، أذاع تلفزيون بغداد قرارَ مجلس قيادة الثورة:

(استناداً إلى أحكام الفقرة (أ) من المادة ٤٢ من الدستور المؤقت قرّر مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٨٠/٣/٣١م ما يلي:

لمّا كانت وقائع التحقيق والمحاكمات قد أثبتت بأدلّةٍ قاطعة أنّ حزب الدعوة هو حزبٌ عميل مرتبط بالأجنبيّ، وخائنٌ لتربة الوطن والأهداف ومصالِح الأمّة العربية، ويسعى بكُلّ الوسائل إلى تقويض نظام حُكم الشعب، ومجابهة ثورة (١٧) تموز مجابهةً مسلّحة.

لذا قرر مجلس قيادة الثورة تطبيق أحكام المادة (١٥٦) من قانون العقوبات بحقّ المنتسبين إلى الحزب المذكور مباشرةً أو العاملين لتحقيق أهدافه العميلة تحت واجهات أو مسمّيات أخرى.

يُنفَّذ هذا القرار على الجرائم المرتكَبة قبل صدوره التي لم يصدر قرارٌ بإحالتها على المحكمة المختصة.

صدام حسين

رئيس مجلس قيادة الثورة

صدر هذا القرار الذي سيُعرَف فيما بعد بقرار إعدام الدّعاة بأثر رجعيّ كان المستهدف الرئيسي من وراء هذا القرار، هو السيد محمد باقر الصدر، فالمادة

١٥٦ تنصّ على ما يلي: (يُعاقَب بالإعدام من ارتكب عمداً فعلاً بقصد المساس باستقلال البلاد أو وحدتها وسلامة أراضيها، وكان الفعل من شأنه أن يؤدّي إلى ذلك).

وفي صباح اليوم التالي، كانت الجامعة المستنصرية مسرحاً لعمليةٍ بطولية نفّذها عضوٌ في الجناح العسكري لمنظمة العمل الإسلامي، سمير نور عليّ، طالِب الفيزياء في كلية العلوم، وقد استهدفت أحد أركان النظام البعثيّ (الرفيق طارق عزيز) رجل الماسونية في العراق؛ حيث كان مِن المقرَّر أن يُلقي هذا الرفيق خطاباً في طلبةَ الجامعة من البعثيين لبيان موقف الحكومة والحزب العدائيّ من إيران الثورة الإسلامية.

وأثناء ترجُّله من السيارة داخِل الحرم الجامعيّ رمى سمير قنبلةً يدوية، فسقط أحد الحرس وطالبةٌ تُدعى (فريال)، وفرّ طارق مذعوراً بعد إصابته بجروحٍ طفيفة، وكان مصاباً بالهلع الشديد وهو يجري في أروقة الجامعة.

أطلق الحرس النار على البطل فهوى شهيداً مضمّخاً بدماء الثورة القانية.. دماء الكرامة الإنسانية، وجُرِح في هذه العملية الجريئة (الرفيق البعثي محمد دبدب) رئيس الاتحاد العام للطلبة. وتمثِّل اتحادات الطلبة في الجامعات صورة للنظام الحاكم في عموم الجامعات العراقية، ومهمّة الاتحاد الوطنيّ مهمّةٌ أمنيّة بالدرجة الأولى، ويعمل على (إقناع) الطلبة بالانتماء إلى حزب البعث العفلقيّ.

وفي المساء ظهر صدام في التلفزيون متوعّداً بالردّ والانتقام:

- والله.. والله.. والله إن هذه الدماء التي جرت على أرض المستنصرية لن تذهب سدى.

كما بثّ التلفزيون وقائع زيارة الطاغية لجرحى الهجوم الراقدين في المستشفى؛ قالت إحدى الجريحات لصدام:

- سيدي سفّر الإيرانيين.

فقال الطاغية:

- نعم سنفعل ذلك.

كان ذلك في ١ نيسان ١٩٨٠م، وبعد ساعات بدأت سلطات البعث حملة كبرى لاعتقال العوائل ذات الأصول الإيرانية، ورافقها حملاتٌ مسعورة لاعتقال الشباب المؤمن.. وعاش المجتمع العراقيّ أوقاتاً عصيبة، وظهرت عنصرية نظام البعث وطائفيته في أبشع صورها.

تمت مصادرة بيت سمير نور عليّ في شارع فلسطين، واعتقال الأُسرة، ومن ثم ترحيلها إلى الحدود الإيرانية في حالة مأساوية.

أمّا البيت فاحتلّه ذئاب البعث وأصبح (مديرية أمن الثورة).. فذبلت حديقة البيت، وذوت أزهاره وشجيرات الورد.. واختفت ضحكات فتيات في ربيع العمر.. وامتلأ بأدوات ووسائل التعذيب الرهيبة..

اختفت الأحلام الـورديـة، وحلّت كوابيس الليالي المرعبة وصرخات المعذَّبين وأصداء السياط والكيبلات. كان صدّام في حقيقته مسخاً مجرماً يقع على النقيض تماماً من السيد محمد باقر الصدر، وهذه هي سُنن التاريخ في الخليقة ومسيرة البشرية.. ينهض موسى بن عمران ليواجه فرعون.. وينهض الإمام الحسين ليواجه الطاغية يزيد.. وينهض السيد محمد باقر الصدر ليواجه الطاغية صدام.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

وهكذا برز الطاغية ذئباً يتلذّذ بقمع شعبه وافتراس مواطنيه. إنّ المرء لَيقف

١. الفرقان: ٣١

حائراً وهو يبحث في جذور صدام الذي ظهر على مسرح الأحداث في تموز ١٩٦٨م حارساً شخصياً، ثم رئيساً لجهاز «حنين» القمعي، ثم نائباً لرئيس الجمهورية، ثم ضابط أركان برتبة فريق!! ثم رئيساً للجمهورية بصلاحياتٍ مطلقة.. وقبل انقلاب تموز كان أحد الأشقياء في عصابة (قني) التي مارست آخر جرائمها تحت غطاء شخصية وهمية عُرفَت بـ (أبو طبر).. والذين عاشوا ليالي الرعب في بغداد يعرفون ما كان يثيره هذا الاسم (أبو طبر) من خوفٍ هائل، ورعبٍ قاتل. ويدركون كيف تنازل الشعب عن حرّيته بسرعة مقابل منحه الشعور بالأمان..

لقد تنازل المجتمع العراقي ليس عن حرّيته فحسب؛ بل وحتى كرامته من أجل البقاء على قيد الحياة..

أما فترة طفولته ومراهقته فيكتنفها الغموض، وهناك من يتحدّث عن (خدماته الليلية) التي كان يقدمها للزبائن!! هذا هو صدام الذي كان يتحكم بمقدّرات ومصير الشعب العراقي.. صدام الذي عاش مشرّداً، تلقّفته الدوائر الماسونية ورعتْه وأوصلتْه إلى سُدّة الحكم.. وإنّ هوان الدنيا أن يكون مصير السيد محمد باقر الصدر بيد هذا الدّعيّ الزنيم!

ومن هوان الدنيا أن يُقدَّم رأس يحيى بن زكريا إلى سالومي من بغايا بني إسرائيل.. ومن هوانها أن يُقدَّم رأس الحسين ابن آخر الأنبياء في تاريخ البشرية إلى يزيد التافه.. يزيد الذي خاطبته الحوراء زينب:

- ولئن جرّت عليَّ الدواهي يا يزيد مخاطبتك؛ إنّي لَأستصغر قدرَك..

ما تزال صرخة السيد محمد باقر الصدر في آخر محاضراته حول حبّ الدنيا:

- ما هي الدنيا؟!

مجموعة من الأوهام.. لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين!

ما تزال هذه الصرخة تتردّد بين جدران الزمن وضمير الأجيال.

المأساة الكبرى

في يوم الاثنين ٧ نيسان ١٩٨٠م جاء صوت المذيع في هيئة الإذاعة البريطانية يتحدث عن: (مصرع الإمام محمد باقر الصدر في القصر الجمهوري ببغداد)، وفي عصر يوم الثلاثاء بدت الأجواء مشحونةً بحالةٍ من التوتر.. وشيئاً فشيئاً سادت صفرةٌ كثيفة اشتدّت لتتحوّل إلى حمرةٍ مخيفة، والغبار يغمر الأرض دونما رياح حتى تعذّرت الرؤية لأبعد من أربعة أمتار.. وساد الوجوم والخوف الوجود، وأدّى البعض صلاة الآيات.. وتساءل رجلٌ بصوت يشوبه الحزن والقلق:

- أتراهم قتلوا سيداً؟!!

مصرع ثورة

التغيير الذي حصل في أعماق فاطمة لا يمكن تفسيره بقوانين مادية أبداً.. إن ما حصل من رقيٍّ روحيّ ومن حالة سموٍّ أخلاقيّ وشعورٍ بالمسؤولية، ناجمٌ عن إشراقٍ للنّور القادم من صبح الأزل، فيغمر القلوب الصافية كالمرايا.. إنه من نور السماوات..

وسط تعتيمٍ رهيب، تدور الآن ملحمة كربلائية في قلب مدينة النجف الأشرف..

الحصار المفروض على بيت السيد محمد باقر الصدر يزداد قسوةً، وتمّ قطع الماء والكهرباء والهاتف، كما تمّ منع دخول المواد الغذائية أيضاً، وفي البيت نسوة وأطفال صغار!! همجيّة حزب البعث تترفّع عنها قبائل المغول والتتار.

ها هي كربلاء تتألّق ملحمتها من جديد في كلّ شبر من أرض العراق.. السيد الصدر ينظر إلى مصارع الرجال في أقبية التعذيب وعلى أعواد المشانق.. فيقبض

على شيبته الكريمة ويذرف الدموع:

- (إلهي بحقّ أجدادي الطاهرين ألحقني بهم).

كان النبأ صادماً.. الله وحده الذي يراقب الأعماق!! الله وحده يعرف حجم الدموع والآهات.. نزل النبأ كالصاعقة، وراح البعض يتشبّث بالأمل!!

ظهَر الطاغية في إحدى قرى الموصل يلقي كلمةً مضطربة، وقد ظهرت على وجهه ملامح الجريمة الكبرى، وفي إيران الإمام الخمينيّ يأمر وزارة الشؤون الخارجية بتقصّي الحقيقة!!

أخبَر جمال زوجته بالنبأ العظيم.. كانت عيناه كسماءٍ مُمطرة، وصوته يختنق بعبراته الحرّى.. وقرأت فاطمة في عينيه حجم الآلام والمعاناة.. كانت مشاعر من اليأس والثورة والثأر تموج فوق وجهه الوضيء.. مشاعر من الألم والغضب وأيضاً حالة من ازدراء هذه الدنيا.. من هذا الزمن الرديء.. نحن نعيش في زمنٍ يُقتل فيه الأنبياء!

أدركت فاطمة أنّ الرحيل بات وشيكاً جداً، وأنّ حبيبها وزوجها جمال يودّعها ويودّع الحياة.. يريد اللحاق بقائده الشهيد حسين العصر. ما تزال آثار العرس تشع في غرفتها الصغيرة كعشٍّ دافئ..

حياتها الزوجية الدافئة في مهبّ عاصفةٍ عاتية.. عاصفة هوجاء لن تبقي ولن تذر..

وبعد أيام غادر جمال البيت ولم يعد.. نعم؛ اختفى جمال، واختفى رفاقه في خليّته الحزبية؛ الواحد بعد الآخر..

تخطّفتهم ذئاب البعث المنحطّ في ليل العراق الطويل!

اختفى هادي عزيم، وكريم عبد سلمان، وعبد الأمير محمد، ومسؤوله في

الخلية الحزبية المهندس صباح علي طابو..

في تلك الليلة التي غادر فيها جمال البيت.. كان يقرأ أشعاراً معبّرة وُلدَت في قلب المعاناة والمحنة:

لا تقُل لي أنه ما زال في العشرين عودي

لا تؤمّلني جميل العيش في القصر المشيد

لا تقل عن ضنك السجن وعن ثقل القيود

لا تقل عن غرف التعذيب عن نزع الجلود

إنّه الدرب الذي يعرِفُني قبل وجودي

إنّه الدرب الذي ضمّ رفاقي وجدودي

درب عمّار وفي مَتنَيه آثار الحديد

وبلال في بطون الرمل في القيظ الشديد

بالذي ردّ به التمّار للطاغي العنيد

بوصايا الثائر المصلوب للأعواد زيد

بصمود ابن جبير وهو محزوز الوريد

بالذي تعرفه الأجيال عن حُجر الشهيد

دربهم دربي ومما وردوا ألقى ورودي

فاشهدي يا هذه الدنيا ويا كلّ الوجود

قد رفضْت العيش في ذلّ فذا عيش العبيد

ورضيت الموت لم أخسر به غير قيودي

مرحباً بالموت فالموت على دينيَ عيدي

فاطمة هذه الفتاة في ربيعها التاسع عشر، تبدو أكبر من عمرها بكثير، فاطمة لم تشعر بغياب جمال.. تحسّه في قلبها، وتراه في غرفتها الصغيرة.. جمال لا يفارقها وهي تواصل السير في خطاه..

سيعود يوماً ما.. ستلتقي به ذات يوم، ومن الوفاء أن تسير على خطاه في طريقه الدامي المرير..

فاطمة لا تعرف بالضبط ما إذا كان جمال قد توارى عن الأنظار لضرورات العمل المسلّح أو أنّه تعرض للاعتقال.. ولكنّها تدرك أنّه بالقرب منها.. تكاد تحسّ بشذا أنفاسه، وتسمع مناجاته في وقت السَّحَر:

- يا ملاذ اللائذين

ويا معاذ العائذين

ويا منجي الهالكين

ويا عاصم البائسين!

ويا راحم المساكين..

ويا مجيب المضطرين

ويا كنز المفتقرين

ويا جابر المنكسرين

إن لم أعذ بعزّتك فبمن أعوذ؟

وإن لم ألُذ بقدرتك فبمن ألوذ؟

مرّت أيامٌ عصيبة، كان البعثيون الأوغاد يفترسون ضحاياهم بوحشية في تلك الليالي الحالكة، وكانت فاطمة تتسلّى بالنظر إلى أشياء جمال.. أبقت كلَّ شيء يتعلّق به في مكانه؛ لأنّها ما تزال محاطةً بروحه وأنفاسه.. زجاجة العطر والمشط والمنديل الصغير.. سجّادته المفروشة في زاوية الغرفة التي استحالت إلى محراب للعبادة.. مكتبته الصغيرة.. كتابه الأثير (خطوات على طريق الإسلام)..

استلّت الكتاب لتستنشق أنفاس الحبيب.. لاحظت ورقةً بيضاء في آخر الكتاب مكتوب فيها بخطّ جمال أبيات شعرية:

- أنا لست من مستسلمين لواقعٍ ألِفوا فسادهْ

أنا لست ممن يطلبون النصر يأتي بالعبادة

عندي الفروض بلا جهاد كالجنود بلا قيادة

شايعتُ آل محمد وأخذتُ عنهم كلَّ عادة

ورضعت حبَّهمُ جهاداً للطغاة بلا هوادة

أنا لم أجد منهم إماماً مات وهو على الوسادة

حتى الذي قد جاوز الستين لم يترك جهاده

حتى العقائل منهُمُ قارعنَ مَن غصبوا السيادة

أنا لن أنال النصر إلا حين أظفر بالشهادة

أنا لا أرى في الموت دون عقيدتي إلا سعادة..

ثَمّة بصيص من الأمل يراود أحلام فاطمة حول مصير السيد محمد باقر الصدر ومصير شقيقته، لاسيما وأنّ الأخبار من خلال صوت الثورة الإسلامية في إيران تفيد بأن الإمام الخمينيّ أمر وزارة الخارجية بتقصّي الحقيقة، وطهران تجري اتصالات مع العديد من الدول، وتستقي المعلومات من مصادرٍ خاصة..

الأمل أعظم شيء يمتلكه الإنسان في زمن المحنة.. كان الأمل الشيء الوحيد الذي يمدّ فاطمة بالثبات والمقاومة.. لن يستطيع البعثيون انتزاعه.. إنّه يشرق في قلبها كشمسٍ صغيرة، فيغمر حياتها؛ برغم الظلمات والزمهرير، بالنور والدفء والطمأنينة والسلام..

سيعود جمال ذات يوم.. وسينجلي هذا الظلام، وتشرق شمس الحرية؛ وراحت تدندن بأشعار زينب العصر:

إلى المجد يا فتيات الهدى لنحيي مآثرنا الخالداتْ

ونكتب تاريخنا ناصعـاً مضيئاً بأعمالنا الزاهرات

فإما مقام العلى نرتقيه وإما قبور تضمّ الرُّفات

وجدت فاطمة في (الصحيفة السجادية) مركبة فضائية تنطلق من فوق صفحاتها إلى عوالم بعيدة.. بعيدة جداً.. عوالم مفعمة بالصفاء والسكينة والطمأنينة والسلام.. تجد في (مناجاة العارفين) بلسماً للجراح، وعزاء لكلّ مَهيض الجناح..

- (إلهي! قَصُرت الألسن عن بلوغ ثنائك.. كما يليق بجلالك.. وعجزَت العقول عن إدراك كُنْه جمالك.. وانحسرَت الأبصار دون النظر إلى سُبُحات وجهك..

ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك..

إلهي! ما ألَذّ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب.. وما أحلى المسير إليك في مسالك الغيوب؟!)

لقد أضاء الحبّ الإلهيّ في أعماقها.. ووجدت نفسها تحبّ زوجها (جمال) الذي أخذ بيدها إلى الطريق المغمور بنور السماوات.. فكّرت أن تكتب له رسالة.. فأمسكت بالقلم، وراحت تكتب بهدوءٍ مستمَدّ من سكينة الليل.

- زوجي الحبيب جمال!

لقد أنرتَ حياتي بنور الإيمان، وأخذتَ بيدي إلى طريق الرشاد.. كنت ظمآنةً أنتظر هذه اليد لتقودني إلى النبع الطاهر.. إلى الإسلام الأصيل..

جمال! لطالما سمعت هاتفاً يصرخ في أعماقي، ينادي بي: أ حَياة تلك التي كنت أعيشها؟! أم ضياع؟!

أشكُرك لأنك كشفت عن عيني غشاوة كادت تهدّدني بالضياع..

وفي هدأة الليل جاءها صوت أُمّ جمال حزيناً مفعماً بالأسى:

- دوّريتك.. بالدرب.. بالسوگ.. ببيوت الحبايب.. ما لگيتك وين يا سلوة دليلي؟!

وين ماشي وشنهو نيتك؟

وآنة ما عندي صبر لو فارگيتك..

وليدگ الباب يتحمل خطيتي..

وريتك أنت اللي يدگ الباب ريتك!

وانهمرت دموعها على وجنتيها لتأخذ طريقها إلى الوسادة.. عيناها مغمضتان وقلبها يقظان.. ووجه جمال تشعّ ابتسامته في الوجدان.. وشفتاها

تتمتمان بآيات القرآن.. حتى مطلع الفجر..

الاحتراق

يمكن تلمُّس الجذور التاريخية للتنظيم النسويّ في حزب الدعوة الإسلامية في العامين ١٩٧٤ - ١٩٧٥م، في وقتٍ كان الحزب يتبنّى المرحلة الثقافية في التغيير استناداً إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]؛ لأنّ التغيير الحقيقيّ يجب أن يتمّ داخل العمق الاجتماعي، وهذا لا يتأتّى إلا من خلال نشر الوعي والعمل الثقافيّ، لأنه موسم نثر البذور التي ستنبت وتعطي أكُلَها ولو بعد حين؛ لأنّ المرأة نصف المجتمع، والأُمّ مدرسة إذا أعددْتَها أعددْتَ شعباً طيّب الأعراقِ، ولأنّ الزوجة سند وظهير للزوج، ولأن البنت ريحانة و..

بهذه التصورات تبلورت أفكار تشكيل التنظيم النسويّ.. خاصة بعد ملاحظة ما حقّقته السيدة بنت الهدى من نجاحٍ باهر في التغيير الاجتماعيّ، وظهور جيل من الفتيات المثقّفات المحجّبات المتحمّسات للتغيير الشامل في جميع مجالات الحياة. وجاء انتصار الثورة الإسلامية في إيران ليؤجّج شعلة الأمل مع ظهور السيد محمد باقر الصدر الذي انبرى لمواجهة النظام حتى النَّفَس الأخير.. وقد عزّز موقف شقيقته المساند لنهضة شقيقها من معنويات عشرات النسوة والفتيات، فتنامى الزخم الجهاديّ في مواصلة السير والنضال جنباً إلى جنب أزواجهنّ وأشقائهنّ وآبائهنّ حتى النهاية، فسطّرن بذلك ملحمةً فريدة في البسالة والشجاعة والثبات..

ولكن ما بالنا نستعجل حوادث الزمن المُرّ وفاطمة ما تزال تغفو بسلام في غرفتها الصغيرة في الطابق العلوي، في ذلك البيت في الحيّ المعروف

---

١. الرعد: ١١

بـ (حيّ الأكراد).. في عالم المنام تمثّلت لها تفاصيل ذلك اليوم المشهود في تاريخ الوطن المقهور.. كانت فاطمة ضمن الوفد النسويّ بقيادة الدكتورة سلوى البحرانيّ.. وفي اللقاء الذي تم في (البرّاني)، المكان الخاص بالرجال، طالبت البحراني السيد الصدر بالبيعة على نفس النحو الذي تمّت فيه بيعة النساء لرسول الله ﷺ..

تم إحضار إناءٍ كبير مليء بالماء، غمس فيه السيد الصدر كفّه اليمنى، ثم قامت النساء والفتيات بوضع أيديهنّ في الإناء وبايعنه على الشهادة.. فاطمة غمست كفّها اليمنى، وشعرت أنها تبايع جدّها رسول الله ﷺ وهي تبايع حفيده الصدر..

مسحت بكفّها المنقوعة بالماء وجهها القمحيّ تبرّكاً، وراحت تصغي إلى حفيد الرسول الأكرم وكلماته النابعة من القلب:

- أنـا أشـعُر باعتـزاز عظيـم بالأخـوات الطيّبـات والبنـات الزاكيـات.. المشـاعر التـي أحـسّ بهـا فـي قلبـي تجاهكـنّ يـا بناتـي مشـاعر لا حـدّ لهـا.. إحساسـي بمسـؤوليتكنّ فـي العصـر الحاضـر إحسـاس كبيـر يـا بنـات فاطمـة الزهـراء..

أنتنّ يا بنات الزهراء، تقع عليكنّ مسؤولية أن تعرّفن العالم أنّ الثقافة والعلم الحقيقيّ يُحمل مع الإيمان.. يحمل مع رسالة السماء، كما حملتها فاطمة الزهراء أُمّكنّ العظيمة.. فاطمة الزهراء كانت مثلاً أعلى في الإسلام.. في الجهاد من أجل الإسلام.. في الصبر على محن الإسلام..

استطاعت أن تُثبت أنّ العلْم يجتمع مع الدين، وأنّ الثقافة الحقيقية توأمٌ مع الإيمان بالله ومع التمسُّك بالإسلام، ومع التمسُّك بالحجاب. أنتنّ حملة رسالة فاطمة الزهراء..

سلامي لكلّ البنات الـعزيـزات.. كلّ بناتي.. كلّ أخواتي.. الله يرعاكنّ ويحفظكنّ.

لن تنسى فاطمة لقاءها بالسيدة بنت الهدى، كانت هالة مِن نورٍ شفّاف تحيط بهذه المرأة الطاهرة.. خُيّل إليها أنّها في حضرة زينب الحوراء.. هذه السيدة التي نذرت عمرَها في سبيل الله من أجل تحرير الوطن من هذا النظام الدكتاتوري اللعين الجاثم على صدر الوطن!

لقد وضعت الظروف الملتهبة في العراق السيد الصدر أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا المواجهة وإمّا الاستسلام.. وكأنما يعيد التاريخ نفسه.. الإمام الحسين كان أمام خيارين: إمّا السِلّة، أو الذلّة، وهيهات منا الذلّة.. وهكذا كان على الصدر أن يُقتل ليوقظ بدمائه القانية التاريخ والحضارة والإنسانية!!

كانت فاطمة في قرارة نفسها تشعر بأن السيد الصدر قد أُعدِم بعد اعتقاله واقتياده إلى بغداد.. كان يوم ٩ نيسان ١٩٨٠م يوماً عصيباً موحشاً.. كان الوقت عصراً وقد بدا الجو مشحوناً.. متوتراً.. وشيئاً فشيئاً سادت صفرةٌ كثيفة، راحت تشتدّ لتستحيل إلى حمرة مخيفة.. الغبار يتكاثف فوق الأرض التي غمرها صمتٌ موحش يشبه صمت المقابر، وتعذّرت الرؤية لأبعد من أربعة أمتار، وساد سكونٌ رهيب!!

وفي المساء هبّت ريحٌ سوداء.. تثير الفزع في النفوس.. وأوشكت السماء أن تمطر دماً عبيطاً!!

نعم؛ لقد وقعت المأسـاة ما في ذلك من شـكّ.. ولكن ماذا عساها أن تفعل؟!! وقد وضعتها الأقدار في طريق النضال الدامي المرير.. عليها أن تنهض بمسؤوليتها في هذه المحنة.. يجب أن تبقى شمعة الأمل متوقّدة في هذا الليل البهيم..

معارك الثأر

كانت فاطمة تتابع في الليالي أخبار القسم العربيّ في إذاعة صوت الثورة الإسلامية، وفي يوم الثلاثاء ٢٢ نيسان، جاء صوت المذيع متهدّجاً يقرأ بحزن بيان الإمام الخمينيّ: (بسم الله الرحمن الرحيم.. إنّا لله وإنا إليه راجعون.. تبين - ببالغ الأسف - من خلال تقرير السيد وزير الشؤون الخارجية.. أن المرحوم آية الله الشهيد السيد محمد باقر الصدر وشقيقته المكرّمة المظلومة.. والتي كانت من أساتذة العلم والأخلاق ومفاخر العلم والأدب، قد نالا درجة الشهادة الرفيعة على أيدي النظام البعثيّ العراقيّ المنحطّ، وذلك بصورةٍ مفجعة..

فالشهادة تراثٌ ناله أمثال هذه الشخصيات العظيمة من أوليائهم، والجريمة والظلم أيضاً تراثٌ ناله أمثال هؤلاء - جناة التاريخ - من أسلافهم الظّلَمة..

وها أنا أعلِنُ الحداد العام لمدة ثلاثة أيام اعتباراً من يوم الأربعاء.. كما أعلنُ يوم الخميس عطلةً عامة.. روح الله الموسويّ الخمينيّ..

فاطمة تبكي بلوْعةٍ وأسى، وما برحت ملامح بنت الهدى تشعّ في وجدانها وبين رموشها الندّية.. حتى يزيد الطاغية الأرعن لمْ يرتكب هكذا جريمة!! لم يقم بقتل بنت رسول الله زينب الحوراء.. لكن صدام هذا الوحش المجرم يقتل هذه السيدة العلوية الطاهرة العالمة الكاتبة الأديبة، التي قدّمت إلى جيلها والأجيال التي تليها أعمالاً أدبيةً هادفة كانت بحقّ (تمثل جهازاً إعلامياً صامتاً)، كما ورد في مقدّمتها لكتابها القصصيّ الرائع: (الفضيلة تنتصر).

خيّم الحزن في تلك الليلة على مئات الآلاف من بيوت العراقيين، وذُرفت الدموع.. دموع الأسى والحزن واللّوعة.. كانت فاطمة تبكي وتذرف الدموع.. تسيل دموعها كما الشموع في ليالي الزمهرير.. وتناهى إلى أذنيها أصداء بساطيل رجال الدورية لعناصر المنظمة الحزبية.. ربما جاءوا لإلقاء القبض على مطلوبين!!!

حين يفتَّش في الليل عن الأحباب

ويقادون إلى حيث يقيم البعثيون الحفلة كلّ مساء في السرداب

تقطيع الأيدي.. تكسير الأرجل.. ثقب الركبة بالمثقاب

وتُشقّ مثانة عبد السادة بالسيخ المحميّ.. ويذوّب عبد الصاحب بالتيزاب

حين تكون الخِسّة قانوناً يحكم في بغداد بغير كتاب

والشرطيّ الأول ذا أنياب..

لا يتورّع حتى عن أكل رؤوس الأطفال..

لا تمنعني أن آخذ سيفاً وأشنّ الحرب على حزب البعث.. نفايات الأحزاب!

الطريق الصعب

استيقظت فاطمة قبل طلوع الفجر.. المدينة تغمرها الظلمات، وسكينة السَّحَر ما تزال تهيمن رغم نباح كلاب يأتي من بعيد..

عجيبٌ أمر هذه الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً؛ كيف أدارت ظهرها لحياة الرغد وتقرّر السير في طريق الحبيب؟!

قرّرت فاطمة أن تستأنف نشاطها بكُلّ ما أوتيَت من قوّة!

كلمات الحبيب ورفيق الدرب ما تزال تشعّ في وجدانها.. وصاياه بالتزام الحذر في علاقاتها.. في تحركها.. خاصة في نقل السلاح وتوزيع المنشورات ومساندة عوائل الشهداء والمعتقَلين والسجناء..

فاطمة عاشت مخاضاً صعباً.. بعد استشهاد السيد محمد باقر الصدر

وشقيقته (بنت الهدى) استحالت إلى سيدة أبيّة قوية كالجبل، نقية كقطرات الندى، في أعماقها بركان غضب.. وفي زمنٍ انهار فيه بعض أشباه الرجال، انبرت فاطمة لتقود خطوط العمل في الكرادة وشارع فلسطين والدورة، ولم تكن بعيدةً عن خط (الثورة)، هذه المدينة الباسلة التي كانت تشهد أمواجاً عاتية من حملات التفتيش والاعتقال، حتى كادت تخلو من نخبة شبابها المثقّف!

عندما كانت تقصد منطقة الزويّة (في الكرادة)، فإنها كانت تسلك طرقاً تستغرق منها ساعات إمعاناً في الحذر، ولم تكن تخبر حتى أقرب صديقاتها بارتباطاتها وخطوطها التنظيمية. كانت تقوم بنقل السلاح وإيصاله إلى الناشطين في الجناح العسكري، ونقل التعليمات والنشرات إلى عددٍ من الخطوط في التنظيم النسوي، إضافة إلى دورها في تقديم العون الماديّ لأُسَر الشهداء والمعتقَلين..

كانت فاطمة تلتقي صديقتها (كميلة شرقي) بانتظام، وكانت اللقاءات الدورية تتمّ في مرقد الإمام الكاظم وحفيده محمد الجواد عليهما السلام، وعادة ما تكون اللقاءات في أيام الجمعة؛ حيث تتوافد أعدادٌ كبيرة من الزوار..

تلقّت فاطمة معلوماتٍ حول اعتقال أحد الشباب الدعاة يدعى (زهير عبد الله) يسكن في منطقة الدورة؛ وعليها أن تزور والدتَه (نورية ناصر حسين)، وكعادتها سلكت طرقاً عديدة إلى أن توجّهت إلى بيت أُمّ زهير، وهي امرأة في حدود الأربعين من العمر. بعدها كانت اللقاءات تتمّ في مدينة الكاظمية، وفي آخر لقاء مع أُمّ زهير أخبرتها أنّ عليها أن تلتقي صديقتها (كميلة شرقي).

كان نشاط فاطمة وكميلة ينصبّ على تعزيز روح الأمل في النفوس، ومواصلة الطريق الذي انتهجه السيد الشهيد محمد باقر الصدر وشقيقته الفاضلة الشهيدة بنت الهدى..

وزّعت فاطمة عدداً من أشرطة الكاسيت، كان يتضمّن محاضرات للسيد الشهيد في (المحنة) وفي (حب الدنيا)؛ إضافة إلى النشيد الخالد الذي ألّفه الداعية المهاجر السيد داود العطار الأستاذ في كلية أصول الدين:

باقر الصدر منّا سلاما ... أيّ باغٍ سقاك الحماما
أنت أيقظتنا كيف تغفو ... أنت أقسمتَ أن لن تناما
كيف تنأى بعيداً ولمّا ... يبلغ المؤمنون المراما
قد فقدناك زعيماً لا يجارى ... فبكيناك دما دمعا سجاما
غبتَ عنّا سريعاً ولمّا ... يطرد الثائرون الظلاما
يا شهيداً قام فرداً ... ينتضي للطغاة حساما
أنت كالسِّبط حسيناً ... قد أبيت الحياة مُضاما
يا أبا جعفر سوف تبقى ... رائداً للورى وإماما
كذب البعث ما زلت فينا ... كالخمينيّ تهدي الأناما

كانت فاطمة ترنو إلى الشرق.. من الأفق الشرقيّ ستشرق شمس الحرية.. سوف يعود المهاجرون يحملون الحرية والخلاص من ظلمات (البعث)..

أجل، كانت فاطمة تشحذ الهمم، وتوقد شموع الأمل في النفوس المعذّبة.. النفوس التي ما تزال تنتظر الذي يأتي..

سيدي!

يابن طه وأحمد

أنت تدري أنّنا كنّا

وما زلنا!

نرى فيك رؤانا

وأمانينا..

وأحلام الغد

ونرى أنّك..

من بعد سنيّ الجدب..

تأتينا ربيعاً أبديّ

أيها القادم من فجر الرسالات..

ومن ألق البشارات..

ومن بعد ليالي الزمهرير الحالكات..

سوف تأتينا..

ربيعاً..

ونهاراً سرمديّ..

على ساحل المحيط

في ظلال النخيل.. على شواطئ دجلة، حيث تجري المياه الغرينية قادمة من الشمال متجهةً صوب الجنوب.. جلستا عند جذع نخلة فتية.. فاطمة تنظر إلى وجه أعزّ صديقاتها في هذا الزمن المرير.. (كميلة شرقي).

كان الحزن يلقي بظلاله على وجهيهما..

فضّلت فاطمة اللقاء برفيقة الدرب والمحنة في هذا المكان، قبل التوجّه لأداء الزيارة وانتظار (أُمّ زهير)..

قالت فاطمة دون مقدّمة:

- قبل أيام التقيت (أمل)، وأخبرتني بأن خطيبها (صباح)..
- استشهد؟
- نعم رمياً بالرصاص
- وسيد جمال؟
- استشهد تحت التعذيب..

قالت كميلة بصوت متهدّج:

- كانت أمل أخبرتني بموعد زواجها.. لكن شاء القدر أن يرحل خطيبها إلى..

قالت فاطمة وهي تذرف الدموع:

- لقد رأى السيد الشهيد الصدر قوافل الشهداء وهي تعرج إلى السماء!

لقد افتتح المسيرة باستشهاده عندما قال في ندائه الأخير:

(وأنا أعلن لكم يا أبنائي أني صمّمت على الشهادة، ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي، وأنّ أبواب الجنة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء، حتى يكتب الله لكم النصر..

عبّرت كميلة عن قلقها مما يجري من اعتقالات في مدينة الثورة.. بعض المعتقلين تنقطع أخبارهم، وبعضٌ آخر يُخلى سبيلهم!

اضطرّت (كميلة) للزواج من (شيخ راضي) بعد استشهاد أختها جميلة؛ لرعاية أطفالها وأيضاً لتبقى حلقة الوصل بين شيخ راضي ومعظم الخطوط الحزبية. وكانت أغلب أسرار العمل الجهاديّ تنتهي إليه بشكل مباشر وغير

مباشر بفعل التداخل بين العمل الحزبيّ والنشاط الاجتماعيّ!

تلقّت فاطمة تحذيراً من إحدى صديقاتها من احتمال اعتقالها، فقد (ذُكر اسمها في المنظمة الحزبية)، وهي دائرة أمنية ترتبط مباشرة بمديريات الأمن المحلّية، وتتخذ من المدارس الحكومية مقرّات لها!

لكن فاطمة كانت تطمح للرحيل مع قوافل الشهداء.. كانت تتطلّع إلى لقاء (بنت الهدى) في ذلك العالم الذي يرفل بالصفاء والسلام..

فاطمة تنتمي إلى الجيل الذي ينظر إلى الشهادة أمنية وغاية (وقتلاً في سبيلك فوفّق لنا)؛ ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾[1].

هل انتبهت كميلة إلى تغيّر في تصرفات (شيخ راضي) بعد اعتقاله، ومن ثم إطلاقه؟!

هل ساورتها شكوك في تحوّله من داعية مجاهد إلى (خا..) و(عميـ..)؟!! وإذا كان الأمر مجرّد شكوك؛ فلماذا بدأت خطوط العمل بالتمزّق؟!!

هل تمّ اختراق الخطوط في مدينة الثورة..

انتبهت فاطمة، ولكن في الوقت الضائع، إلى اختفاء العديد من الفتيات، وشعرت بالخطر يقترب منها أكثر فأكثر.. وتُقرّر فاطمة مواجهة القدر..

كانت قد وطّنت نفسها على المضيّ في هذا الطريق الصعب حتى النهاية.

الهجوم على بيت فاطمة

كانت التقارير الأمنية ترد على مديرية أمن الثورة حول (فاطمة) ونشاطها الواسع.. وأصبح البحث عنها والقبض عليها شغْل (الأمن) الشاغل..

١. يس: ٢٦

ورد اسمها في اعترافات المعتقلين والمعتقلات.. لكن لا أحد يعرف عنوانها، وأين تسكن؟!

تعرّضت إحدى المعتقلات في (أمن الثورة) إلى جولةٍ مدمرة من جولات التعذيب البعثيّ الرهيبة.. أسفرت عن اعتراف حول عنوان (بيت فاطمة).. مدينة الثورة (حيّ الأكراد). كانت ما تزال تسكن في بيت زوجها جمال الموسويّ خرّيج معهد التكنلوجيا، الذي توفّي أثناء التحقيق (توفّي تحت التعذيب)، وبيت أهلها في شارع فلسطين.

جثم الليل على صدر المدينة المقهورة، وبدا القمر شاحباً في تلك الليلة الصيفية.. ما تزال جدران البيوت مشبعة بحرارة شمس تموز..

بالقرب من ساحة بيروت في شارع فلسطين ينهض مبنى (مديرية أمن الثورة)، وكان هذا المبنى في الأصل بيت الشهيد سمير نور غلام، الذي هوى شهيداً أثناء تنفيذه عملية بطولية استهدفت أحد رؤوس البعث المنحطّ.

انقضّ ذئاب البعث على هذه المدينة المقهورة في حملات اعتقال واسعة النطاق..

وأدّت هذه الاعتقالات إلى اعترافات خطيرة مزّقت أوصال الحركة الإسلامية كلَّ ممزّق.

انهار بعض الأعضاء الناشطين أثناء التعذيب، وأدّى هذا الانهيار إلى سقوطٍ أخلاقي مريع، حوّلهم من ضحايا إلى جلّادين.. وكانت الضحايا فتيات في مقتبل العمر.

وكان القمر شاحباً

في تلك الليلة الصيفية من ليالي تموز، غادرت سيارة لاند كروز بيضاء اللون

مبنى (أمن الثورة) في شارع فلسطين لتعبر جسر (القناة) باتجاه (حيّ الأكراد)!

كان الوقت بعد منتصف الليل.. توقّفت السيارة أمام دار صغيرة تتألف من طابقين..

اقتحم ذئاب البعث البيت، وقبضوا على فاطمة واقتادوها معصوبة العينين.. وكانت سيارةٌ أخرى قد توجهت إلى بيت أهلها في شارع فلسطين للقبض على أخوات فاطمة، ثلاث أخوات في عمر الزهور. وصلت سيارة اللاند كروز مبنى (أمن الثورة) الذي بدا في تلك الليلة غولاً مخيفاً.. حتى أن المرء لا يصدّق أن هذا المبنى كان قبل سنتين بيتاً دافئاً تعيش فيه أسرة وعائلة تتردّد ضحكات الأطفال في حجراته وحديقته المكتظة بورود الجوري، والتي تحيط مساحة خضراء من الثيّل الزاهي الخضرة.. أمّا الآن فقد أضحى وكراً لذئاب البعث، تُمارَس فيه صنوفٌ مرعبة من أساليب التعذيب! استقرّت سيارة اللاند كروز داخل المبنى الرهيب..

وكعادة هؤلاء الأوغاد من نفايات المجتمع في استقبال أحرار العراق.. بدأت الأفواه القذرة بإطلاق الكلمات البذيئة والهابطة من أجل تحطيم (الأسيرة) المعصوبة العينين، المكبّلة اليدين..

وتمرّ الدقائق.. لتجد فاطمة نفسها في غرفةٍ كئيبة أمام (الوحش) وجهاً لوجه.. وجه فاطمة القمحيّ الذي تشعّ منه هالةٌ من نور شفّاف لا ينتمي لأنوار الشمس ولا القمر.. إنّه نورٌ قادم من عمق السماوات..

راح الوحش ينظر في وجه فريسته.. قبل أن يبدأ التحقيق معها في إحدى غرف التعذيب..

كيف يمكن لفتاة رقيقة في الحادية والعشرين أن تواجه هذا الجلاد؟!

علي الخاقانيّ (أبو جواد) من مواليد مدينة النجف عام ١٩٣٥م في السابعة

والأربعين من العمر.. أسمر.. بشرته القاسية تسودها صفرة.. أجشّ الصوت.. في عينيه بريقٌ مخيف كشررٍ يتطاير.. تاريخه أسود في تعذيب الدعاة.

شارك في تعذيب (قبضة الهدى): الشيخ عارف البصريّ، وعماد الدين التبريزيّ، ونوري طعمة، وحسين جلوخان، وعزّ الدين القبنچي عام ١٩٧٤م، وقتها وبسبب وحشية التعذيب كافأه نظام البعث بترقيته من (مفوّض) في مديرية أمن الديوانية إلى (ملازم)، ثم إلى رتبة رائد في (مديرية أمن الثورة)!!

الخاقاني آلةٌ متوحشة أبدعها جهاز البعث.. مسَخَها من كائنٍ آدميّ إلى وحش يفترس ضحاياه بدمٍ بارد.. رجالٌ أشدّاء لم يصمدوا بين براثنه.. يمارس التعذيب كما لو أنه لعبةٌ ممتعة.. تسكره صيحات الضحية، وعادة ما تتلطّخ ملابسه بالدماء وهو ينتزع الأسرار والاعترافات التي تنتهي بأسراه إلى الإعدام!

أمّا إذا واجه صموداً من ضحيته، فإنه ينتفض كالثور الهائج، ويصاب بحالة من الجنون والهستيريا.. وحينئذ تتحول المنيّة لدى الضحية إلى أُمنية ونافذة خلاص..

في تلك الليلة الحالكة السواد، وقد تراكمت الظلمات بعضها فوق بعض، كان الوحش ينظر إلى فريسته، عليه أن ينتزع من هذه الفتاة الاعترافات حول مخابئ السلاح وخطوط التنظيم النسويّ ببغداد!

في غرفة التعذيب جلست فاطمة.. بين براثن الوحش المرعب وبين جدرانٍ أربعة مطليّة بالقار معزولة عن العالم، كانت فاطمة تتأهّب لأولى جولات التعذيب..

هذه الفتاة الرقيقة تتكشّف عن امرأة قوية أبيّة صامدة.. قرّرت منذ لحظات الاستقبال البعثيّ البذيء أن تخوض المواجهة حتى النهاية..

بدأ الخاقاني جلسة الاستجواب بنبرات خشنة:

- إي علوية! شلونچ[١]؟

- ..

- بويـة فاطمـة! إحچيلـي[٢].. آنـي ما أريدهـم إيهينـوچ[٣].. هنـا ما يرحمـون الشـيعية ولا حتـى العلويـة.. آنـي الوحيد هنـا شـيعيّ، وأريد مصلحتـچ[٤].. والزهـرة[٥] الزچيـة[٦] إلّا ترجعيـن الليلـة للبيـت! بـس حتى أقنـع المدير.. خبرينـي بأسـماء البنـات اللـي تحـت ايـدچ.. ودلّينـي علـى المـكان الـي خبّـأ فيـه جـمال السـلاح!!

قالت فاطمة بنبرات واثقة

- أي سـلاح؟! وأي بنـات؟! ما أعـرف عـن شـنو تتكلّـم؟! وسـاد صمـتٌ ثقيـل للحظـات قبـل أن يقـول بصـوتٍ يشـبه فحيـح الأفعـى:

- بنتي! الكل اعترفوا عليچ، واحنه نعرف كلّ شيء..

ماكو داعي للّف والدوران

أجابت على الفور:

- أي اعتراف؟! أكيد أكو اشتباه

راح الوحش يردد:

---

١. شلونك (كيف حالك).

٢. احكي لي.

٣. لا أريد أن يهينوك

٤. مصلحتك

٥. فاطمة الزهراء عليها السلام

٦. الزكية

- اشتباه؟ اشتباه؟ اشتباه..

صرخ بمساعديه، فامتثل ذئبان أحدهما يمسك بعصا غليظة، والآخر بـ (كيبل) أسود يشتمل على أسلاك من النحاس.. تخطّف الجلادون جسمها لتتهاوى فوق الأرض كفراشةٍ محطّمة، واستمرّ الضرب على باطن القدمين (الفلقة) حتى أحمرّتا ثم نزّت منهما الدماء..

أُغميَ على فاطمة.. لتنفتح رؤاها على عالَمٍ مفعم بالصفاء.. تسير في طريقٍ مغمور بالنور.. من بعيد يلوح لها طيف يتألّق بهاءً يشير إليها أن أسرعي.. تحاول الإسراع قدماها تنوءان لا تستطيع..

فجأة يظهر وحشٌ مخيف أنيابه تنزّ صديداً.. لينطفئ المشهد المتألّق بالنور.. تفتح عينيها لتجد نفسها بين براثن الوحوش..

جاءها صوت (الوحش):

- فاطمة! أنت بأي صف؟

قال أحد الجلادين:

- سيدي خريجة إعدادية!

قال الوحش بصوتٍ أجشّ:

- شوفي اللوحة المعلگة شنو مكتوب عليها:

- ..

راح الخاقانيّ يقرأ دون أن ينظر إلى اللوحة.. فهو يحفظها ويحفظ غيرها:

- أوصي الأجهزة الأمنية بإلغاء أي حدود لممارسات التعذيب ضد أعداء الثورة دون أيّ حرجٍ أو خشيةٍ مِن مساءلة..

من كرّاس وصايا الرفيق صدام حسين إلى الأجهزة الأمنية

تعرفين معنى إلغاء أيّ حدود للتعذيب؟!

- ..

- يعني ماكو أي حرمة.. يعني امزقچ.. فاطمة اسمعي زين..

أحسن الچ تعترفين.. ولچ زلم خلّيتهم يبچون مثل النسوان!

ما اعترفوا وبس.. صاروا يشتغلون ويانا.. نعرف كلشي.. أنت محور في التنظيم.. عرفنا هذا من البداية.. بس عنوانچ ما كنّا نعرفه.. راح تتفاجئين بالشخص اللي اعترف عليچ!!

قالت بصوت واهن:

- أكيد أكو اشتباه، لحدّ الآن ما أعرف عن شنو تحچي.. اعترافات كاذبة تحت التعذيب ما لها أساس من..

أهوى الوحش بصفعة أطاحت بها، وجاء صوتٌ أجشّ له أصداء خنزير:

- عندي صلاحيات مطلقة في انتزاع الاعترافات.. أنا محقّق بغداد الأول.. مئات الشباب الآن جوّه التراب انتزعت أرواحهم بعدما انتزعت كلّ المعلومات منهم و..

- كلامي ما راح يتغيّر ما عندي أي شيء لا تنظيم.. لا سلاح لا..

أهوى الجلاد بـ (الكيبل) فانطلقت صرخة فاطمة مدوّية:

- الله أكبر! الله أكبر

لكنّ صرختها بقيت تتردّد داخل الجدران السوداء.. وخارج المبنى.. ارتفع أذان الفجر:

- الله أكبر.. الله أكبر!!

أشار الوحش بتعليق الأسيرة.. كبّلوا فاطمة بـ (الجامعة) من الخلف.. يا للقدر! كانت فاطمة تحلم بدخول الجامعة.. جامعة بغداد! أمّا (جامعة) الأمن، فهي عبارة عن حلقتين تتصلان بسلسلةٍ قصيرة مصنوعة من (الاستيل) مكتوب عليها (made in England).. كان صوت الأذان ينساب:

- أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

عُلّقت فاطمة من خلال سلسلة (جامعة) البعث الإنجليزية إلى سنّارة في السقف تدعى (الچنگال).

شعرت فاطمة باشتعال النار في معصميها الرقيقتين إلى أعلى ذراعيها.. تشعر بأنّ ذراعيها يكادان ينخلعان وهما يلتهبان بالنار.. وشيئاً فشيئاً يسري الخدر ويتوقف الزمن تصبح الدقائق شهوراً بل سنين طويلة.. طويلة جداً..

وبدأت العصيّ و(الكيبلات) تنهال على جسدها الواهن، وكان صوتها يخفت ويخفت

- الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر

يشير الوحش إلى نهاية الجولة الأولى من حفلة البعث، يتهاوى جسمها فوق أرضية الغرفة القاسية.. ويغادر الوحش يتبعه جلّادوه القساة بعد أن قاموا بربط فاطمة إلى السلّم!

نزل عليها طائر الكرى.. ليغمض عينيها.. لكنها أبعدته لتؤدي صلاتها.. كانت تمتمات الصلاة تجري من بين شفتيها الذابلتين.. غيّر التعذيب ملامح وجهها بعد ساعات معدودة من العذاب والآلام الرهيبة.. وبالرغم من كلّ ذلك لا زال في قلب فاطمة ثمة أمل يومض كالنجوم.. (جمال) رفيق الدرب والحبيب الغائب والمغيّب!

تصوّرته في عمق الأهوار مع رفاقه الثوار.. وربما هاجر إلى الشرق إلى حيث تدور أكبر ملحمة من أجل تحرير العراق من براثن حزب البعث وعصابته اللاإنسانية:

- في كلّ شبر بالعراق لنا يموت
طفل وأغنية..

وخلف جدران البيوت

لنا عيون..

ترنو إلى كلّ الذين يهاجرون..

بلا وداع..

إلى المتاهة والضياع..

فيغرقون ويختفون..

بين الضباب..

وبين أتربة السنين..

ويحلمون.. ويحلمون..

يوماً يعود الغائبون..

إلى العراق.. إلى الحسين..

دمه المُراق.. على الشواطئ والسواحل..

والبحار..

بين الصحاري والقفار..

في كلّ شبر بالعراق.. لنا نشيد وانتظار..

ولنا بيارق ألف ثار

ولنا رجال..

يشعلون الحرب من أجل السلام..

يتوهّج الدم في الظلام

فيولد الغد والنهار..

تألّق وجهُ جمال في ضمير فاطمة.. كم تشتاق إليه.. أين أنت يا جمال؟ هل غبت يا جمال أو غيّبوك؟ هل هاجرت أو اعتقلوك؟..

وانبعث في أعماقها بكاء أُمّ جمال في تلك الليالي الموحشة عندما مرّ على اختفاء جمال ثلاثة أيام بلياليها:

- دوّريتك بالدرب.. بالسوگ

ببيوت الحبايب..

ما لگيتك..

وين يا سلوة دليلي؟!

دوّريتك..

وابكل مكان وما نسيتك..

وليدگ الباب.. يتحمّل خطيتي

وريتك أنت.. اللّي يدگ الباب..

ريتك..

في المساء، بدأت الجولة الثانية من حفلات التعذيب البعثي.. جاء الوحش ومعه جلاوزته من غلاظ الأكباد.. رفس الوحش فاطمة، وأمر بجرّها إلى غرفة التعذيب.. وراح يكيل شتائمه البذيئة.. مفردات جارحة تخرج من تحت شوارب كثّة وسِخة، ممتزجة برائحة كريهة، رائحة خمر وتخمّر و..

راح الوحش يهدّد باغتصابها.. أمر اثنين من جلاوزته بتمزيق ثيابها وتعريتها تماماً! وكان هذا العمل أشد الأساليب عذاباً لفاطمة! فاطمة هذه الفتاة الطاهرة النقية تُعرّى؟!

أمر الوحش بتعليقها بـ (الچنگال)، وراح لهيب النار يشتعل في المعصمين ويسري إلى أعلى الذراعين.. الوحش يمرّر عصا كهربائية (الزنبور) على أذنيها وشفتيها الذابلتين وأجزاء حساسة في جسمها.. وفي الأثناء كان سوط الجلواز يلهب الجسد الخاوي بالسياط..

كانت تشعر أن العري أشد إيلاماً من سياط الجلادين..

الوحش يحمي سكيناً حتى إذا توقدت وضعها على شاربه الكثّ، فيصدر صوت رهيب وتنبعث رائحة كريهة منفّرة.. راح الوحش يضع السكين المتوقّد كالجمر على أجزاء حساسة من جسم فاطمة المعلّق إلى السقف كما تعلق الذبائح.. هنا يتجسّد الشرف البعثيّ.. في هذه الغرف المظلمة والأقبية، يعاني آلاف المعتقلين من الشمال إلى الجنوب صنوف التعذيب..

بدأت حفلة تعذيب همجيّ.. أحمى الوحش السكين وراح يكوي أجزاء من جسم الأسيرة الصامدة.. كانت فاطمة تئنّ وتتمتم بكلمات..

وكان الوحش يصبح أكثر هياجاً ويصرخ:

- بهشتي! رفسنجاني!.. تعالوا شوفوا حال بنتكم!

تنتهي حفلة التعذيب هذه المرّة، فيطلب من جلاوزته، بعد أن أُغمي عليها، إنزالها من السّارة وسحلها إلى الموقف، فلُفّت بعباءة ممزّقة، وتمّ سحلها إلى الموقف..

بقيت ساعات وهي فاقدة الوعي.. وفي كلّ يوم كانت فاطمة تُعذَّب.. كان جسدها يتمزّق، بينما روحها تشتدّ سطوعاً..

الجولة الأخيرة

بعد غياب لبضعة أيام جاء (الوحش) ودخل الموقف، حيث عشرات الفتيات والنسوة، بعضهنّ ينتظرن دورهنّ في التعذيب، وبعضهن ينتظرن نقلهن إلى (موقف مديرية الأمن العامة) لتصديق الاعترافات المنتزعة بالقوة وتحت أشدّ أنواع التعذيب..

صاح الوحش بطريقة ساخرة:

- وينچ فاطمة؟ أدور عليچ!

كانت فاطمة مستغرقة في صلاةٍ طويلة ومناجاة مع الحبيب.. كانت جالسة بين يدي ربّ السماوات والأرض ربّ العالمين..

جلس الوحش إلى جانبها وراح يقلّد حركاتها.. سجد بطريقة هزلية وراح يقوم بحركات سخيفة كمهرّج فاشل..

- بوية فاطمة شتگولين بدعائچ؟!

- ..

- راح أنـه أدعـو بمكانـچ.. يـا ربّ يـا حنّـان يـا منّـان يـا مـن بيـده كلّ شـيء خـذ روح فاطمـة وارحمهـا منّي!

صرخ بجلاوزته لسحل فاطمة إلى غرفة التعذيب.. راح الجلاوزة يعلّقون فاطمة بالسنّارة، ومرّة أخرى أمر بتعريتها.. وأخذت السياط تلهب جسمها..

جاء الوحش وبيده جهاز تجفيف الشعر (الفير).. وضعه في المقبس الكهربائي، وبدأ الهواء الساخن يندفع بقوة وعندما أصبح ساخناً جداً أقترب من أسيرته الأبية وراح يدخله في منطقة الرحم!!

راحت فاطمة تصرخ، لكن صرخاتها كانت ترتدّ من فوق الجدران السوداء..

- يا الله! يا الله!

الوحش يزداد ضراوة.. أمر بإنزالها من السنّارة فتكوّمت فوق الأرضية كفراشة مسكينة مزّقتها عاصفةٌ هوجاء!

استخدم الوحش أداة أخرى في التعذيب آلة لسلخ الجلد، فسلخ وبطريقة وحشية جلد كتفها الأيسر، ثم أحمى السكين فوق مدفأةٍ صغيرة حتى إذا توقّدت راح يكوي بدمٍ بارد أجزاء من جسمها الممزّق:

- فاطمة اعترفي! وين خبّأتي السلاح:

كانت فاطمة على حافة الموت.. روحها تكاد تغادر جسدها الممزّق..

التفت الوحش إلى أحد الجلاوزة:

- التيزاب!

قام الجلواز بصبّ مادة التيزاب (حامض النتريك HNO_3) الحارقة على أعلى ساقيها، فتهرّأ اللّحم.. وهنا انطلقت صرخات هستيرية أرعبت جميع فتيات الموقف حتى اللّائي تعرّضن من قبل إلى جولات من التعذيب الهمجيّ..

أغمي على فاطمة.. وكان الوحش (أبو جواد) يصرخ بصوت يشبه صوت الخنزير الوحشيّ! لقد أثاره صمود فاطمة الأسطوري..

أمّا فاطمة فقد كانت في قرارة نفسها تتمنّى الموت.. تكاد تصرخ:

- أين أنت أيها الموت الرحيم؟

عندما كانت طفلة كان هاجس الموت يخيفها، شاهدَت على التلفزيون فلماً يُدفن فيه رجل، ويهال التراب على وجهه.. لم تستطع تلك الليلة أن تنام، وامتنعت عن مشاهدة التلفزيون ليالٍ طويلة.. أما الآن فقد أصبح الموت في غاية الروعة.. شيء جميل.. نوم عميق.. راحة من كلّ هذا العذاب.. خلاصاً من هذا الوحش!

أحياناً يخامرها شعور بأنها ستلتقي (جمال) في وقت ما في مكان ما! وستنتهي ذات يوم رحلة العذاب..

ذات ليلة رأت في عالم الرؤى (بنت الهدى)؛ وجهها المضيء يشعّ بنور شفّاف، وابتسامتها الجميلة.. كانت تجلس إلى جانب شقيقها شهيد العصر.. كان المشهد حالماً.. سماء زرقاء كالفيروز، تشعر بقربها وقد بدت الشمس كمصباحٍ ذهبيّ والقمر بدراً بهيّاً، وارتجّ المشهد فجأة وتلاشى..

أيقظها صوت الوحش، جرّوها إلى غرفة التحقيق.. كان الوحش يجلس خلف منضدةٍ صغيرة وأمام عينيه إضبارة..

قال الوحش لفاطمة:

- اسمعي زين! هذه اعترافات المتّهمة نورية ناصر حسين، عمرها ٤٥ سنة، تسكن في الدورة، رقم الدار ٩٦/٦/٥٢.. قولي ما أعرفها!

- ..

- اسـمعي إفادتهـا زيـن! بعـد اعتقـال ولـدي زهيـر تـردّدت إلـى دارنـا المتهمـة فاطمـة علـي طالـب، شُـغلها ربّـة بيـت، تسـكن (الثـورة)، فأخـذت تتحـدّث لـي بـأن السـلطة اعتقلـت رجـال الديـن، وأعدمـت الشـباب وتطـارد المؤمنيـن والمصلّيـن، وطلبـت منّـي أن آتـي إلـى الكاظميـة يـوم الجمعـة..

سكت لحظات وراح ينظر إلى فاطمة التي كانت تتحاشى نظراته، ثمّ قال:

- تريدين أكمل؟!
- ..
- تريدين أنت تكملين؟!
- -..
- السكوت علامة الرضا
- أنـا ما بديـت حتـى أكمـل.. وإذا أكـو اعتـرافات فهـي مأخـوذة تحـت التعذيـب!

هزّ الوحش رأسَه، وفي أعماقه إعجاب بهذه الفتاة؛ ثمّ قال:

- گتلچ قريباً راح تتفاجئين!!

في داخله استعاد مشاهد للشيخ راضي، كيف انهار وراح يبكي ويتوسل إليه أن يوقف تعذيبه.. كان يقبّل حذاءه، ويبدي استعداده المطلق للتعاون.. لقد اعترف على جميع الخطوط النسوية في مدينة الثورة والكاظمية والشعلة وبغداد الجديدة و.. بل اعترف على نسوةٍ لا يعرفهنّ بالاسم وإنما بالكنى.. وكانت فاطمة ضمن الأسماء التي اعترف عليها ولا يعرف غير الاسم فقط.. حاول التعرّف على عنوانها من خلال (كميلة)، ولكنها لم تجد في ذلك ضرورة.. لهذا كانوا يعذّبون الفتيات لانتزاع تفاصيل أكثر عن (فاطمة)..

وقد حاول الأبطال من شباب الحركة الأشدّاء إقفال العديد من الخطوط النسوية، ولكن (شيخ راضي) الذي يحتفظ بأغلب أسرار العمل الحركيّ؛ كان يعيد باعترافاته فتح ما يُقفل من تلك الخطوط!

صمدت فاطمة في كلّ جولات التعذيب، وكان الوحش قد مزّق جسمها لكن فاطمة أثبتت صحّة هذه المقولة: إنه (من الممكن تدمير الإنسان، ولكن من المستحيل هزيمته).

نعم؛ تمّ تحطيم جسم فاطمة تماماً، لكن روح فاطمة ظلّ قوياً عصيّاً أبيّاً، فتجلّت كرامتها الإنسانية؛ ولم يكن من السهل الصمود أمام وسائل وأدوات وأساليب التعذيب البعثيّ، ولكن فاطمة استمدّت ثباتها وعزّتها وصمودها من الله الذي يهب الروح والكرامة الإنسانية!

التقرير

في ذلك الصباح الحزين، وفيما كان الوحش الذي اعترف في قرارة نفسه بالهزيمة، يسطّر تقريره حول (التحقيق) مع (المتهمة): فاطمة علي طالب محمد؛ كانت فاطمة قد أفاقت من حالة الإغماء بعد تلك الجولة الرهيبة من التعذيب الهمجيّ.. أفاقت لترى عيون فتياتٍ ونسوة تذرف الدموع.. إنه (موقف أمن الثورة)؛ حيث تنطفئ الشموع.. شموع الأمل.. شموع الحياة بغد مشرق..

في ذلك الصباح الكئيب، كان الوحش جالساً خلف منضدةٍ صغيرة صدئة.. يسطّر تقريره حول المتهمة: (فاطمة علي طالب محمد) وفي هذا التقرير يوصي بإعدام (الخائنة) شنقاً حسب المادة (١٥٦) الفقرة (أ) من الدستور المؤقت؛ لانتمائها إلى حزب الدعوة العميل لإيران!

وتمّ إدراج التقرير في إضبارة (فاطمة) التي اقتيدت معصوبة العينين إلى سيارةٍ خاصة أشبه بالصندوق المغلق.

السّماء تفتح أبوابها في المساء

كانت السيارة الصندوق تشق طريقها في شوارع بغداد إلى مبنى مديرية الأمن العامة.. وبعد أقلّ من نصف ساعة، كانت فاطمة تضع قدميها بصعوبة فوق أرضية المبنى..

سُلِّمت الإضبارة إلى ضباط التحقيق، وتقرّر الإبقاء على القضية مفتوحة مؤقتاً.. أمّا (فاطمة) فقد اقتيدت إلى قبوٍ أسفل الطابق الأرضي..

صمتٌ رهيب يهيمن فوق هذا المكان المظلم؛ عشرات بل مئات الفتيات والنسوة اللائي مررن بمرحلة التحقيق في غرف التعذيب وانتُزِعت (الاعترافات) منهن في ظروفٍ قاسية.. يتجمّعن في هذا القبو لحين إرسالهنّ إلى محكمة الثورة العسكرية.. فتيات بعمر الزهور؛ جاؤوا بهنّ من مختلَف مدن العراق.. فاطمة، إيمان، أمل، عواطف، فائقة، ساجدة، عالية، هاشمية، حليمة، مريم، غنية، سهيلة، انتصار، وفاء، هيفاء، دولت، ابتسام، زهور، جنان، شذى، ليلى، حميدة، سامية، زهراء..

أبقى الوحش الخاقاني قضية (فاطمة) مفتوحة، لعلّه يقبض على أحد له صلة وارتباط بالخطوط التي تقودها فاطمة.. وهكذا تمرّ الأيام والأسابيع والشهور، ولكن لا شيء.. وأخيراً أحيلت إضبارة (فاطمة) وملفّات التحقيق للمحاكمة..

وفي صباح يومٍ خريفيّ تمّ نقل فاطمة إلى مبنى محكمة الثورة العسكرية.

كانت قاعة المحكمة تعجّ بشباب العراق ورجاله ونخبة مثقّفيه!

الحرس والموظفون والعاملون يستقبلون المعتقلين بكلمات بذيئة، وشتائم ومصطلحات ومفردات هابطة، تعكس بوضوح أخلاقيات حزب البعث المنحطّ! أُدخلت فاطمة قاعةً كبيرة لتستقرّ داخل قفصٍ حديديّ صدئ، مقابل منصةٍ عالية يجلس عليها ثلاثة من جلّادي الشعب المقهور، يتوسطهم رئيس المحكمة اللواء مسلم الجبوري، الذي أصدر أحكام الإعدام ضد الآلاف من أحرار

العراق وخيرة شبابه!

وخلال دقائق كانت الاتهامات تُوجَّه من خلال الاعترافات المزوّرة أو المنتَزعة تحت أشدّ أنواع التعذيب وحشية وهمجيّة..

في البداية لم تتعرّف فاطمة على القاضي ولا على محامي الدفاع ولا أعضاء المحكمة؛ لأنّ الجميع كانوا يشتركون في شتم المعتقلين! ومن المفارقات أن محامي الدفاع الذي عيّنته المحكمة، كان يطالب رئيس المحكمة بإنزال أشد وأقسى العقوبات بالمتهمين!!

كان المعتَقلون يقدَّمون للمحاكمة على شكل وجبات، فتجري محاكمتهم في دقائق معدودة.. ثم ينقلون إلى غرفٍ كبيرة خلف قاعة المحكمة لحين حلول الساعة الواحدة ظهراً، حيث تتم تلاوة الأحكام..

وأخيراً:

تشكّلت محكمة الثورة العسكرية برئاسة اللواء مسلم الجبوري وعضوية المقدّم الحقوقيّ ياسين عباس أحمد، والعقيد الحقوقيّ داود سلمان شهاب، وأصدرت باسم الشعب القرار التالي:

الحكم بالإعدام على فاطمة علي طالب الحسيني؛ بالإعدام شنقاً حتى الموت وفق المادة ١٥٦ الفقرة (أ) من قانون العقوبات في الدستور المؤقت؛ لانتمائها إلى حزب الدعوة العميل لإيران، ولحيازتها أسلحة محظورة، ولارتكابها جرائم تخلّ بأمن الثورة وبأهداف حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ. تلقّت فاطمة حكْم محكمة البعث المجرم بابتسامة.. كانت واقفةً كجذع نخلة كسيرة..

بعدها اقتيدت الأسيرة إلى (السيارة الصندوق) التي اتّجهت بها إلى شرق بغداد.. عبرت السيارة جسر القناة لتدخل بغداد الجديدة، وتمرّ بالمشتل لينتهي

بها المطاف في مدينة (الرشاد) الصغيرة على طريق بعقوبة القديم، توقّفت السيارة أمام مبنى (سجن الرشاد).. كانت فاطمة تنوء بنفسها وقد ازدادت نحولاً جرّاء حفلات التعذيب ورحلة العذاب..

السجن تعلو جدرانه العالية الأسلاك الشائكة.. ويتألف من أربعة أقسام، وكان القسم الثالث هو القسم الخاص بالقضايا السياسية؛ المبنى عبارة عن مستطيل غير متساوي الأضلاع.. عبرت فاطمة الباب الرئيسية، وهي مُزوَّدة بنافذةٍ حديدية مغلقة في أغلب الأوقات.

يتألف القاطع الأيمن من أربع زنازين؛ مساحة الزنزانة ٣٫٥ × ٢٫٥ م٢. أمّا القاطع المقابل للباب الرئيسية، فيتألف أيضاً من أربع زنازين، ويتألف القاطع الأيسر من ثلاث زنازين تنتهي بالمغاسل، وتنفتح القواطع جميعاً على ساحة تسمى (الشبكة)، وكانت مديرة السجن امرأة دميمة بذيئة اللّسان، تدعى (رافدة الجبوري). انتشر خبر وصول فاطمة الحسيني بسرعة البرق داخل القسم الثالث والقسم الرابع الخاص بالقضايا السياسية..

ومَن لا يعرف فاطمة الحسيني؟! وأغلب المعتقلات من بنات مدينة الثورة أبرز الخطوط في الحركة الإسلامية.

حقل الأحزان

فوجئت فاطمة بأعداد كبيرة من المعتقلات من الخطوط التي كانت تقودها.. وشعرت بالمرارة عندما اكتشفت أن رفيقة الدرب الدامي المرير (كميلة شرقي) قد قبض عليها، وحكم عليها بالإعدام، واستشهدت فوق أعواد المشانق.. ولكن كيف؟!!

وجاءها الجواب من (أمل):

- اعتــرافات شــيخ راضــي!! دمّــرت جميــع خطــوط العمــل.. تعرّضنــا للاعتقــال جميعــاً.

- يا ربّ!

انبعثت من أعماقها صرخةٌ مكبوتة.. كم تعذّبت من أجله؟!

من أجلكم..

وندّت منها كلمة جمعت كلّ مشاعر الألم والمرارة والفجيعة، قالت وكأنّها تهمس لنفسها:

- مستحيل!!!

ثم لاذت بصمت عميق.. راحت تتأمّل الجدار المزيَّن بنقوش وكتابات بخطوط مختلفة، ولفتت نظرها نقوش وكتابة بخط كبير:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، وأسفل هذه الآية القرآنية التي تشعّ بطاقة لا نهائية من الثبات والصمود والصبر رسم حقلان: حقل الأفراح، وتحته تواريخ كلّ الذكريات الحلوة:

- تاريخ تخرّجها من الجامعة.
- تاريخ زواجها.
- تاريخ ميلاد طفلتها (إيمان).
- تاريخ وصول الإمام الخمينيّ إلى أرض الوطن.
- تاريخ انتصار الثورة الإسلامية.

وإلى جانب هذا الحقل حقل آخر، هو حقل الأحزان، وفيه تواريخ الذكريات الحزينة:

---

١. آل عمران: ١٣٩

- تاريخ استشهاد السيد محمد باقر الصدر، والسيدة بنت الهدى.
- تاريخ اعتقال وإعدام شقيقها (زكي) وتسليم جثمانه.
- تاريخ اعتقال أزواج شقيقاتها.
- تاريخ اعتقال شقيقتها (ليلى).
- تاريخ استشهاد زوجها (عبد الأمير).
- تاريخ اعتقالها وفراق ابنتها (إيمان).

نظرت (فاطمة) إلى أمل نظرات تساؤل عن صاحبة هذه النقوش، قالت أمل بألم ومرارة وأسى:

- إنها الشهيدة (أم إيمان) زوجة الشهيد عبد الأمير، تمّ إعدامها في شباط الماضي.. اسمها سميرة عودة المنصوري، كانت مدرّسة لغة عربية.. زوجها الشهيد أيضاً كان أستاذاً في اللّغة العربية.. وقصتها طويلة.. تعرّضت إلى تعذيب رهيب في مديرية أمن البصرة على يد الجلاد مهدي الدليمي (أبو هبة)، وهو أبشع وأقسى من الجلّاد علي الخاقاني (أبو جواد)..

التفتت أمل إلى فاطمة.. كانت تشعر بالإجهاد الشديد وقد أغمضت عينيها لتستغرق في خدر النوم.. إلى حيث تنزلق النفس الإنسانية في عالمٍ مجاور شفّاف تتفتح فيه الرؤى.. عالم هو في حقيقته نافذة صغيرة تطلّ بالروح على عالمٍ آخر يزخر بالرموز المعبّرة، وعندها يصبح المجاز قنطرة الحقيقة..

وإلا ما معنى أن يرى الإنسان في هذا العالم بحراً أسود المياه، ورغم صغره الذي قد يناهز في سعته أحواض تربية الأسماك أو المسبح العادي؛ إلا أنه هائج الأمواج؛ والناس يقذفون بأنفسهم فيه، فإذا بالأمواج فيما بعد تلفظهم عراة يتساقطون عند ساحله الصخري على أدبارهم؟!..

وما معنى أن يرى الإنسان نفسه في هذا العالم وقد حلّق في الفضاء خفيفاً؛ بل في حالة من الشعور بانعدام الوزن مع إحساس فيّاض بالسعادة وانطلاق في فضاء واسع جداً تبدو فيه الأرض بحجم صغير جداً؟! فهو ينطلق حرّاً خفيفاً سعيداً إلى أية نقطة وفي أية جهة يشاء!!

لقد رأى الإمام عليّ أمير المؤمنين، في اللّحظات الأخيرة التي سبقت عروج روحه العظيم، مشاهد من ذلك العالم المفعم بالسلام:

- أرى رسول الله يشير بكفه إليّ: يا عليّ! هلمّ إلينا!
- مرحباً مرحباً يا ملائكة ربّي!
- الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الجنّة!
- هذا رسول الله وأخي جعفر وعمّي حمزة

وأبواب السماء مفتّحة، والملائكة ينزلون ويبشّرون..

وهذه فاطمة وحولها الحوريات..

وهذه منازلي في الجنة.. ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾[1]..

ولجت فاطمة في ذلك العالم المجاور الذي يطلّ بالقلب المؤمن على العالم الآخر..

كانت السماء مفتّحة الأبواب.. الفضاء يزخر بأجنحة الملائكة.. ورأت (بنت الهدى) وهي تبتسم وتلوّح لها.. ورأت حبيبها ورفيق الدرب (جمال) واقفاً كما لو كان ينتظر قدومها.. ورأت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولم يخطر على قلب بشر..

---

١. الصافات: ٦١

وتناهى إلى أذنيها نداء قادم من بعيد.. نداء واضح الكلمات فيه ترجيعة حزينة.. هي حزن الأنبياء:

- وأنـا أعلـن لكـم يـا أبنائـي.. أنـي قـد صمّمـت علـى الشـهادة.. ولعـلّ هـذا آخـر ما تسـمعونه منّـي.. وأن أبـواب الجنـة قـد فتحـت لتسـتقبل قوافـل الشـهداء.. حتـى يكتـب الله لكـم النصـر..

وفي المساء.. في تلك اللحظات التي تنفتح فيها أبواب السماء، أفاقت فاطمة.. فتحت عينيها لترى رفيقات الدرب المرير ينظرن إلى ما فعله الجلّادون.. آثار الكيّ والتيزاب وسلخ الجلد تروي فصولاً قاسية من محنة فاطمة..

العيون تذرف الدموع بصمتٍ حزين، وخارج أسوار سجن الرشاد، كانت السُّحب تتراكم في السماء، والمطر ينزل على هَون..

بدأت (عليّة قاسم) تشدو بنشيد الدعاة الخالد:

باقر الصدر منّا سلاما أيّ باغ سقاك الحماما

وانضمت إليها (إيمان البصري)، و(سميرة فاضل الحياوي)، و(كاظمية) و..:

أنت أيقظتنا كيف تغفو أنت أقسمت أن لن تناما

كيف تنأى بعيداً ولمّا يبلغ المؤمنون المراما

غبت عنّا سريعاً ولمّا يطرد الثائرون الظلاما

قد فقدناك زعيماً لا يجارى فبكيناك دماً دمعاً سجاما

السماء المثقلة بالغيوم ما تزال تمطر على هَون، فكأنها تشارك معتقلات سجن الرشاد حزنهنّ في ذلك المساء الخريفيّ من عام ١٩٨٢م:

السّماء تفتح أبوابها في المساء

يـا شـهـي-داً قـام ف-رداً ينتضي للطغاة حساما

أنت كالسبط حسين قد أبيْت الحياة مضاما

يا أبا جعفر سوف تبقى رائ-داً لل-ورى وإم-ام-ا

كذب البعث ما زلت فينا كالخمينيّ تهدي الأناما

نحن أقسمنا يميناً أن نضحّي أو نرى الإسلام شرعاً ونظاما

وتوهّج الحماس في النفوس المؤمنة:

دعوة قدتَها قد تسامت ثورة هدفاً والتزاما

وشباباً دعوت فهبّوا يرخصون الدماء كراما

وسبيلاً سلكت أنيرت بالضحايا وطابت مقاما

إنّ ديناً شيّدته أمّة بالدما يتسامى

يهدم الكفر ويبقى يملأ العالمين سلاما

يا أبا جعفر نَم قرير العين إنّا هجرنا المناما

قد عشقنا الشهادة ذَوداً عن حمى الدين حتى يقاما

نحن أقسمنا يميناً أن نضحّي أو نرى الإسلام شرعاً ونظاما

وعلا صوت عواطف وأمل بحماس:

باقر الصدر منا سلاما أيّ باغ سقاك الحماما

وساد الصمت المهيب، وكان صوت رشاش المطر يسمع بوضوح..

كانت فاطمة ترسل نظراتها البعيدة من خلال النافذة الصغيرة فتخترق نظراتها خيوط المطر.. وإلى جانبها وقفت إيمان وعليّة وسميرة وفائقة، وتمرّ اللحظات.. وقد رحلت النفوس إلى حيث تستيقظ الذكريات، وتحلّق الأماني والرؤى والأحلام..

غادرت سميرة وفائقة وتبعتهما إيمان وعليّة.. وبقيت فاطمة ترنو إلى ما وراء خيوط المطر..

وبقيت (عواطف وأمل)

بانتظار الذي لا يعود

في تلك الليلة الخريفية، التي انتصف فيها الليل.. وغرق القمر في ركام الغيوم.. وفي ذلك البيت الصغير في (حيّ الأكراد).. في الغرفة الصغيرة في الطابق العلويّ.. في عشّ الزوجية المهجور، جلست أُمّ جمال تذرف الدموع بصمت.. وانبعث صوت حزين واهن.. كما لو كان بقايا خيط من الماء في ساقية في حقل عصفت به رياح الزمهرير، كانت أُمّ جمال تنوح على ابنها جمال المغيّب الذي ذهب بلا وداع، وغاب وراء أستار المجهول..

- دوّريتك بالدرب بالسوگ..

ببيوت الحبايب.. ما لگيتك!

وين يا سلوة دليلي!

وين ماشي؟ وشنهو نيتك؟

وين.. شو ما خبّرتني؟

ولا خذتني وياك من صارت مشيتك

ولا گلت وين أخلّي أُمّي؟

وآنة ما عندي صبر لو فارگيتك..

وليدگ الباب يتحمّل خطيتي..

وريتك أنت..

اللّي يدگ الباب.. ريتك..

وقفت أُمّ جمال وراحت تنظر إلى الغيوم المتراكمة.. سالت دموعها، فامتزجت مع قطرات المطر، وكانت السماء قد فتحت أبوابها بماء منهمر..

النهايات

استقرّت فاطمة في سجن الرشاد في زنزانة في القسم الثالث الخاص بالمحكومات بالإعدام، وكانت الإجراءات تقضي بإقفال الزنزانة في التاسعة مساءً حتى التاسعة صباحاً، إلا أنّ بعض الرقيبات كنّ يتعاطفن معهنّ، فيُترك لهنّ حرية الاختلاط مع سائر السجينات..

والحقيقة أنّ الرقيبات فوجئن بالسلوك القويم والخُلق الرفيع لسجينات الحركة الإسلامية وتنظيم حياتهنّ، في ظروفٍ بالغة الصعوبة، وفي ظل إدارة (رافدة الجبوري) المليئة بالعُقد النفسية التي جمعت بين قبح الصورة وقبح السيرة.

فاطمة تغيّرت كثيراً.. ملامح وجهها وبريق عينيها النجلاوين.. لم تعد تلك الفتاة التي كانت تفيض حيوية وتنظر بأمل.. فاطمة وصلت إلى سجن الرشاد في منتصف خريف ١٩٨٢م قبيل المساء، وكان الجو بارداً ينفذ في العظام، برودة

الخريف تبشّر بشتاء قاس جداً!

فاطمة تغيرت كثيراً.. في أعماقها شعور بالمرارة.. لقد تحطّم في داخلها كلّ ما بنته من آمال.. انطفأ في عينيها ذلك البريق.. أضحت مجرّد طيف لفتاة.. التعذيب الرهيب غيّر ملامحها.. لكن الطعنة النجلاء التي صرعتها تلقتها في الرشاد.. عندما وجدت صديقاتها ورفيقات الدرب المرير قد سبقنها إلى الاعتقال والتعذيب والمحاكمة، وها هنّ في سجن الرشاد؛ بل إنّ أعزّ الصديقات قد رحلت شهيدة..

صُدمت فاطمة باستشهاد رفيقة الدرب (كميلة شرقي)، واستشهاد شقيقتها (جميلة)!!

لقد تعرّضت لأبشع أنواع التعذيب على يد (الوحش الخاقانيّ)، ولم تعترف ولم تذكر اسماً واحداً!

في أعماقها سؤال! بل ألف سؤال!!

كانت السماء قد فتحت أبوابها بماء منهمر.. وكانت فاطمة قد فرغت من أداء صلاة العشاء.. التفتت إلى إحدى صديقاتها، نظرات تساؤل.. أدركت ما يعتمل في قلب فاطمة من آلام، وشعرت عواطف تلك الفتاة الأبيّة نحوها بالعطف وهي تراها تصلّي الفريضة في حالة جلوس.. لا تستطيع القيام! همست فاطمة تتساءل عن سرّ وجود هذا العدد الكبير من الفتيات في السجن:

- قاموا باعتقالنا جميعاً في يومٍ واحد أو يومين!
- كيف؟
- اعترافات شيخ راضي هدّمت جميع الخطوط في مدن بغداد
- مستحيل!! مستحيل!!

قالت فاطمة ذلك، وقد شعرت بسكّين الخيانة تغوص في قلبها!

بهذه السهولة يتمّ تحطيم كلّ ما قام به الدعاة من أعمال؟! بهذه السهولة يستسلم الرجال ويقدّمون اعترافاتهم بالمجّان؟!..

وهل كان قرار المواجهة المسلّحة صحيحاً؟! هل دخول الحركة الإسلامية في معركة غير متكافئة صائباً؟! وهل؟ وهل؟

وهل كان توريط فتيات بعمر الربيع في هذه المعركة الشرسة منطقياً؟! معركة غير متكافئة.

هل من الصواب زجّ الفتيات في مواجهة مسلّحة ضد نظام همجيّ وحشيّ بربريّ مدجّج بكلّ أسلحة الدمار وأدوات التعذيب الرهيب؟! ضد نظام مثل نظام البعث المنحطّ الذي لا يتورّع حتى عن (أكل رؤوس الأطفال)؟!

أسئلة ظلّت تبحث عن جواب؟!

من أجل هذا ركنت فاطمة إلى الصمت.. لجأت إلى محراب الصمت.. الصمت محراب الإنسان عندما يريد أن يراقب موكب الحياة.. عندما يدرك في النهاية أنّ الحياة الدنيا مجرّد سراب.. أباطيل.. أوهام..

ألم يعلن شهيد العصر قائد المسيرة المدمّاة:

- ما هي الدنيا؟! مجموعة من الأوهام.. لكنّ دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين..

أجل.. هذه الدنيا مجرّد أوهام.. العالم الحقيقيّ عالم آخر مفعم بالصفاء والسلام.. إنّه هناك في الجانب الآخر من النهر.. نهر الزمن الممتد من الأزل إلى الأبد..

غبطت في أعماقها صديقتها الحميمة (كميلة)، وقدوتها الكبيرة الشهيدة (بنت الهدى)..

لقد أدى انهيار شيخ راضي إلى مأساة وكارثة إنسانية وسلسلة طويلة من الفجائع التي عصفت بمدينة الثورة ومدن بغداد الأخرى.

ومن المؤسف أن تدخل الحركة الإسلامية مواجهةً مسلّحة مصيرية من دون استعداد في الجانب الروحـيّ؛ لأن الروح هو من يمدّ الإنسان بالثبات والمقاومة والصمود.. الروح هو من يعزّز الإرادة، ويمدّ الشخصية بالقدرة على مواجهة الأعاصير وعاديات الزمن..

فاطمة لا تكاد تصدّق أبداً أن يكون مصير شيخ راضي هذا السقوط المدوّي، فهو كادر متقدم من كوادر الحركة الإسلامية في مدينة الثورة الباسلة مخزن الرجال الأشدّاء.. وليس اعتباطاً أن يتطلّع السيد الشهيد محمد باقر الصدر إلى هذه المدينة ورجالها ونسائها بأمل، ويطلق مقولته الشهيرة: (من مدينة الثورة ستنطلق الثورة)!

فاطمة كسيرة القلب، مهيضة الجناح، تلعق جراحها بصمت.. وجدت عزاءها في الصلاة والمناجاة..

في سكينة الليل وقد أوت الكائنات إلى سباتها.. تستغرق فاطمة في صلاة طويلة، يستحمّ قلبها في نهر يترقرق في واد ظليل مفعم بالصفاء..

- إلهـي! ما ألـذّ خواطـر الإلهـام بذكـرك علـى القلـوب، وما أحلـى المسـير إليـك بالأوهـام فـي مسـالك الغيـوب..

وما أطيب طعم حبّك؟! وما أعذب شرب قربك؟!

فأعِذنا من طردك وإبعادك! يا ربّ!

- يا ملاذ اللائذين! ويا معاذ العائذين! ويا منجي الهالكين!
إن لم أعُذ بعزّتك فبمن أعوذ؟! وإن لم ألُذ بقدرتك فبمن ألوذ؟!

سبحان الله.. سبحان الله.. سبحان الله.. سبحانك اللهم وحنانيك!

سبحانك اللهم وتعاليت..

عندما كانت فاطمة في (الموقف) في مديرية الأمن العامة، خُيّل إليها أنها سمعت صوت ناقوس الكنيسة يأتي إليها من بعيد! فتداعت في أعماقها كلمات الإمام عليّ عليه السلام يفسّر صوت الناقوس عندما قال لصاحبه وهو يحاوره:

- أتدري ما يقول الناقوس؟
- الله ورسوله وابن عم رسوله أعلم
- إنه يضرب مثل الدنيا وخرابها، ويقول:
لا إله إلا الله.. حقاً!

صدقاً.. صدقا!

إن الدنيا قد غرّتنا.. وشغلتنا!

واستهوتنا.. واستغوتنا!

يابن الدنيا مهلاً.. مهلا!

يابن الدنيا.. دقاً!

يابن الدنيا.. جمعاً!

تفنى الدنيا.. قرناً!

ما من يوم يمضي عنّا!

إلا أوهى منّا ركنا!

قد ضيّعنا داراً تبقى!

واستوطنا داراً تفنى!

لسنا ندري ما فرّطنا!

فيها.. إلا.. لو قد مِتنا!

أغمضت فاطمة عينين قد أجهدهما السهر؛ لتستغرق في نومٍ هادئ لم تنعم به منذ شهور طويلة. وبالرغم من النوافذ المغلقة وبعد المسافة استيقظت فاطمة على صوت ملائكيّ يترقرق كساقية في الحقل:

- الله أكبر الله أكبر..

لا إله إلا الله..

لا إله إلا الله..

الله.. الله.. الله.. الله..

فاطمة تسبغ الوضوء، وتستغرق في صلاة طويلة بانتظار مطلع الشمس.

كانت مغمضة العينين.. وقد تفتّح قلبها كمرآة صافية.. تنعكس فوقها أنوار قادمة من عمق سماوات بعيدة الغور..

كان قلبها يتلقّى الإشراق والوعي..

فاطمة مستغرقة في الصلاة.. لم تنتبه إلى حضور عواطف.. وأمل..

السّماء تفتح أبوابها في المساء

وفي مساء ذلك اليوم كانت السماء قد فتحت أبوابها بماء منهمر..

العودة إلى الوطن.. ٢٤ كانون الأول ١٩٨٢

رياح كانون الأول تبشر بشتاء قارس .. في ذلك الصباح الخريفي الشاحب، توقفت سيارة الصندوق الخاصة بنقل السجناء لتنفيذ أحكام الإعدام.. كانت السماء مثقلة بالغيوم وقد تراكمت السحب المخزونة بالبروق والرعود ..

ترجّل الجلاد «أبو سمير» الذي بدا في ذلك الصباح ذئبا أغبر..

قام بـإبلاغ مديرة السجن التي أشـارت إلى الرقيبة «أم سفيان» بإبلاغ السجينات: عواطف نوري الحمداني وأمل الربيعي وفاطمة طالب الحسيني بالاستعداد للتوجه إلى سجن «أبو غريب».

اغتسلن غسل الشهادة، وارتدين حلة الرحيل البيضاء المطرزة بآيات القرآن العظيم .. وانسابت سورة ياسين كساقية في وادٍ ظليل .. عانقت عواطف أخواتها بحرارة.. لقد أزفت لحظات الرحيل إلى عالمٍ مفعم بالسلام ..

كانت السماء قد بدأت تنث مطراً ناعماً؛ تَساقَط قطراته على هون، فكأن السماء تبكي بحزن .. امتزجت قطرات المطر مع قطرات الدموع في مشهد غارق في حزن مرير ..

وتتعالى أصداء الصلوات على محمد آل محمد .. صعدت عواطف إلى الصندوق القاسي، وتلتها فاطمة وأمل، وأغلق الجلاد الباب بخشونة ..ثمة نافذة زجاجية صغيرة مربعة الشكل، مساحتها عشرون في عشرين سانتمترا، مزودة بقضبان أفقية. تحركت السيارة في طرق ملتوية صوب سجن أبو غريب العتيد..

عواطف تطل على بغداد من وراء زجاج النافذة، وكانت قطرات المطر تتزحلق فوق الزجاج، وتسيل كالدموع، اقتربت أمل تلقي نظراتها الأخيرة على

الوطن المقهور .. بغداد ما تزال نائمة في أحضان الكرى .. المشاهد تمرّ بسرعة، جلجل الرعد يمزق أوصال الأرض، شعرت أمل بفيض من الدموع تصاعد من الأعماق ..

وتنبعث الذكريات.. ذكريات قديمة.. ذكريات الطفولة .. الأزقة المغمورة بأضواء النهار ..الصباحات المشرقة في ظلال قباب ومنائر المرقد الطاهر للإمام الكاظم وحفيده الجواد..

في تلك الأيام الحزينة، تبلورت ظاهرة كانت تلفت الأنظار ..قبيل انتصاف النهار، تفد أمهات جنوبيات، يجتمعن مقابل الضريح من جهة باب المراد، وعادة ما يصادف الزائر بضعة نساء يرتدين السواد وقد استغرقن بقراءة أشعارٍ حزينة بصوت شجي يقطر أسى؛ يندبن فلذات الأكباد المغيّبين في مطامير وسجون الطاغية وأقبية البعث المنحط.. يتأسّين بالإمام الكاظم الذي أمضى سنوات طويلة في سجون الطاغية هارون..

عواطف وأمل تتطلعان إلى شوارع بغداد الحزينة تحت سماء مثقلة بجبال من غيوم مشحونة بالرعود..

عواطف تدعو فاطمة تستعجلها لتلقي نظرات الوداع على الوطن المكبل بالسلاسل والأغلال ..تعالي ودّعي بغداد الحبيبة.. رفعت فاطمة رأسها، وأفتر وجهها القمحي عن ابتسامة حزينة، ثم عادت إلى إطراقاتها في محراب الصمت..

بغداد تتململ تحت إيقاع أناشيد وثنية هابطة وأغانٍ رخيصة؛ تمجد النمرود حارس البوابة الشرقية وبطل القادسية .. آه يا بغداد.. آه ..

«ثلاث مرات سقطت بغداد تحت الاحتلال الهمجي..

فمرة حين غزا ترابها المغول ..

ومرتين حين جاء للحكم بها النغول ..

ومرة رابعة ذاك يسمى المستحيل..»

عواطف تعاتب بغداد.. فقد طال نومها .. إلى متى يا بغداد؟! انهضي .. آه لبغداد التي لا تثور..

نهضت فاطمة واحتضنتها بحب:

حبيبتي عواطف؛ اهدئي.. اتركي العتاب..

السيارة تقترب من سجن أبو غريب الرهيب؛ الذي يجثم فوق برارٍ موحشة.. هنا.. خلف هذه الجدران القاسية تقع مقبرة الأحياء..

توقفت السيارة في إحدى ساحات السجن الموحشة..

اقتاد الـجلادون فاطمة وعواطف وأمل إلى مبنى في قاطع الإعدام قسم الأحكام الثقيلة.. وتمر ساعات النهار ثقيلة طويلة.. تضاءل نور الشمس التي هوت باتجاه المغيب.. لا توجد لوحة أكثر حزنا من مشهد الغروب في فصل الخريف..

فاطمة تدخل غرفةً صغيرة، تبعتها عواطف وأمل.. في الغرفة كرسي كهربائي ومشنقة.. حبل المشنقة يتدلى بقسوة بالغة كثعبان أسطوري.. الغرفة تطل من خلال نافذةٍ زجاجية على قاعة كبيرة كانت مكتظة بعددٍ كبير من شباب العراق، ورجاله الأشداء كانوا ينتظرون تنفيذ أحكام الإعدام .. وقد بدت عشر مشانق منصوبة في آخر القاعة.. أصداء دوي كدوي النحل.. بين دعاء ومناجاة وتراتيل الآيات.. مئة وخمسون من شباب العراق يترقبون ساعة الرحيل.. البعثيون الأوغاد يبدأون حفلات الإعدام مع غروب الشمس..

تمتزج الأصوات.. تمتمات الدعاء والمناجاة والآيات .. وفي غمرة هذا المشهد المهيب ثمة صوت يتعالى .. صوت مترع بأحزان الأنبياء .. أصداء كلمات استحالت إلى نشيد لملايين المقهورين ..

يحسين بضمايرنا .. صحنا بيك آمنا

لا صيحة عواطف هاي ..لا دعوى ومجرد راي ..هذي من مبادئنا .. صحنا بيك آمنا ..

لمسنا بيك أبو الأحرار.. عرفنا الموت حرية..

لمسنا التضحية بشخصك.. عرفنا الشرف تضحية ..

لمسنا بيك أبي وما تلين .. عرفنا الذل عبودية..

لمسنا قسوة اعدئك ..عرفنا احنا فدائية..

عرفنا نظل بيدين يزيد ..من ايد لقساوة ايد..

عرفنا ولمن عرفنا .. صحنا بيك آمنا..

عشرة مشانق تتدلى منها حبال غليظة قاسية.. تتوحد الأصوات؛ تنصهر في صوتٍ واحد: يا حسين بضمايرنا.. صحنا بيك آمنا ..

بدأت حفلة الإعدام لمئة وخمسين من خيرة شباب العراق.. وتقدم الشباب إلى منصات العروج صوب الأبدية .. كل من يتقدم يسجد ويقبّل الأرض، ثم يصعد إلى المشنقة وهو يتمتم بكلمات الإيمان والشهادة .. ويُدفع الكرسي، ويرتجف الجسد الآدمي .. ثم يسكن، فيسقطونه أرضاً، وبعدها يقوم الجلادون بسحله .. وأثناء سحل أحد الشهداء، لمحت عواطف زوجها «علي ناصر الحياوي».. أجل؛ سحلوه أمام عينيها، انسحبت من أمام النافذة .. وضعت رأسها بين كفيها،

ولاذت بصمت حزين.. انتهت الحفلة وجاء دور الفتيات.. «الزمن» يقترب جدا من منتصف الليل.. لم يعد هناك متسع من الوقت الرسمي، ولهذا تقرر تأجيل التنفيذ.. وهنا كشّر الوحش الخاقاني عن أنيابه الصفراء التي بدت تنز صديدا قائلا: الوقت يكفي لإعدام فاطمة..

أفتر وجه ملائكي عن ابتسامة فيه حزن سماوي ..أجل؛ ابتسمت فاطمة بهدوء .. أراد الجلاد اقتيادها، لكنها رفضت وتقدمت نحو المشنقة بوقار.. كما لو أنها منصة انطلاق نحو الحرية والخلاص من ويلات الأرض .. وضع الجلاد الحبل على «جيد الفتاة».. قال ضابط كان واقفاً قريباً:

- فاطمة .. عندك طلب أخير؟

أومأت برأسها: نَعم .. طلبت قطعة خبز .. اقتطعت من الخبز جزءا، وناولت الباقي إلى عواطف، ونظرت إليها برجاء أن توصله إلى الأخوات في الرشاد. الوحش الخاقاني يقترب منها، قال لها بنفاق:

علوية.. بشرفي عندي صلاحيات من السيد الرئيس صدام حسين شخصياً؛ بإمكاني تغيير حُكم الإعدام .. بس أريد خطوطك واسم مسؤولك .. ومكان السلاح؟؟

قالت فاطمة:

- اسمع زين.. هذي درجة ما ينالها إلا السعداء .. تريدني أتنازل عنها؟؟

ابتسمت تسخر منه:

- أبو جواد شكد انطوك وقت حتى تخدعني؟؟

شعر الجلاد بالإهانة .. عجيب أمْر هذه الفتاة تتحدى وحبل المشنقة ملتف حول عنقها الرقيق ..؟؟

ومِن خطبة عمتها أمام طاغيةَ الشرق الأوسط قائلة له: ولئن جرت الدواهي عليّ يا يزيد مخاطبتك.. إني لأستصغر قدرك ..

انبرى الجلاد، فرفسها بقسوة الشمر الضبابي قبل أن يضعوا على رأسها القناع الأحمر .. تدلى الجسد الرقيق بين السماوات والوطن .. وامتزجت كلماتها الأخيرة مع حشرجة الصوت ..

سكن الجسد وسكتت فاطمة لتتحدث بلغة الصمت .. لغة هي أبلغ من كل أبجديات الدنيا ..عرج الروح مخلِّفاً رداءه الطيني .. أزفت ساعة الانطلاق بين السماوات والوطن ..

وبعد منتصف الليل في تلك الليلة من نهايات خريف عام ١٩٨٢، ومع أنين الريح وهي تعول بين الدروب ورذاذ المطر، أعيدت عواطف وأمل إلى سجن الرشاد .. وهكذا قُدر لعواطف أن تروي للأجيال تفاصيل المشهد الأخير من ملحمة الشهيدة فاطمة الحسيني..

فاطمة..

سيدتي؛ إنني أذرف الدموع كلما تذكرت قصتك

لا أعرف أسرار بكائي..

هل أرثي زهرة شبابك؟

وقد عصفت بها رياح؟

أم أبكي لشنقك؟

لأنهم حينما شنقوك إنما شنقوا الفضيلة والطهر والنقاء

سيدتي ..

حدثيني بالله عليك ..

حدثيني عن النور الذي هفا إليه روحك ..

إن رسالتك إلى جمال زوجك، يجب أن يقرأها جيلك والأجيال التي تليه..

زوجي الحبيب جمال ..

لقد أنرت حياتي بنور الإيمان، وأخذت بي إلي طريق الرشاد..

كنت ظامئة أنتظر هذه اليد الي تأخذني إلى النبع الطاهر..

فهل كانت مصادفة أن يكون السجن الذي مكثت فيه قبل شنقك يحمل اسم «الرشاد»..؟!

فاطمة ..

وداعا أيتها الشهيدة ..

شهيدة الحب الإلهي ..

ربما سنلتقي ذات يوم.. هناك ..

في أرض الوطن..

مصير الوحش

في خريف عام ٢٠٠٣، جاء من يثأر لفاطمة .. كان الوحش الخاقاني مختبئاً مثل رئيسه الجرذ في بيت أخته في «الزعفرانية»..

انكمش على نفسه وتكوّر وقد حانت لحظة القصاص الصغرى.. استقرت

رصاصة في أعلى اليسار من القفص الصدري .. حيث يوجد ما يشبه القلب مصنوعا من الرصاص..

ليست نهاية

الأول من كانون الثاني ٢٠٢١
كمال السيد

فاطمة تدخل غرفةً صغيرة، تبعتها عواطف وأمل.. في الغرفة كرسي كهربائي ومشنقة.. حبل المشنقة يتدلى بقسوة بالغة كثعبان أسطوري.. الغرفة تطل من خلال نافذةٍ زجاجية على قاعة كبيرة كانت مكتظة بعددٍ كبير من شباب العراق، ورجاله الأشداء كانوا ينتظرون تنفيذ أحكام الإعدام .. وقد بدت عشر مشانق منصوبة في آخر القاعة.. أصداء دوي كدوي النحل.. بين دعاء ومناجاة وتراتيل الآيات.. مئة وخمسون من شباب العراق يترقبون ساعة الرحيل.. البعثيون الأوغاد يبدأون حفلات الإعدام مع غروب الشمس..

كلمات

ISBN:978-614-440-340-2